

الدكتور عبد الرحمن علي الحجى

أندلسية

برهانه () () ()

دار النشر

للطباعة والنشر والتوزيع
ص.ب. ٦٢٤٧ - بيروت

- الطبعة الأولى
- ٥١٣٨٨ / ١٩٦٩ م
- جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

© A. A. EL - HAJJI , Baghdad, 1969

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الافتتاح

إلى الأندلس أرض البطولة .

حيث عمّر الإسلامُ قروناً ثمانية .

فَنَعِمَتْ بِالْخَيْرِ مِنْ فَضْلِ تَسَامُحِهِ كَافَةُ الْأَجْناسِ
وَالْأديانِ ؛

نَبَتَتْ كُلُّ الْعُلُومِ بِرِعايَتِهِ ،

وَتَرَعَرَعَ الْفَنُّ الرَّفِيعُ تَحْتَ وارفِ ظِلَالِهِ ؛

فَكَانَتْ حَضَارَتُهُ شَاخِضَةً ،

وَمَنَارُهُ هَادِيًا ،

خَلَّفَ تَرَاثًا نَافِعًا ، نَدِيَّ الذِّكْرِيَّاتِ ،

لَنَا مِنْهَا عِبْرَةٌ وَعِبْرَةٌ .

المحتوى

٧	تقديم
٩	الأندلس في التاريخ الإسلامي
٢٦	طارق بن زياد
٣١	موسى بن نصير
٣٧	عبد الرحمن الداخل
٤٢	صورة من الدبلوماسية الأندلسية
٥٤	يا لَمَحْنَةُ الْقَالِي
٥٧	حفلة دبلوماسي في قصر قرطبة الزاهر
٦٥	سفارة أندلسية إلى بلاط الدانمارك
٧٥	المُصَاهِرَات بين الأندلس وإسبانيا الشمالية
٨٧	نقد لكتاب : « تاريخ اسبانيا الاسلامية »
١٠٠	ابن حَيَّان القرطبي
١٠٥	ابن حَزْم القرطبي من خلال كتابه : « طوق الحمامة »
١١٣	ابن حَزْم الأندلسي الفقيه الأديب

١٣٣	النكبات طريق النصر - ١ -
١٣٩	النكبات طريق النصر - ٢ -
١٤٧	فتية لشبونة المغرورون
١٥٤	أسس الحضارة الإسلامية في الأندلس
١٧٧	المصادر
١٨٥	للمؤلف



تقديم

هذه مجموعة مقالات وبحوث في عدد من الموضوعات الأندلسية ، أغلبها تاريخية ؛ كانت قد أُذيعت أو أُلقيت ، أو نُشرت في صحف ومجلات عربية ، والمفضل أن تجتمعها دفعة واحدة في هذا الكتاب لتكون أيسر تناولاً . وقد عُدل أو أضيف إلى بعضها ، كما زُوِّدت بالمصادر . والأمل أن يفيد منها المعنيون بمحقل الدراسات الأندلسية .

ولعل في هذا الجهد بعض الإسهام في خدمة تراثنا الإسلامي الرائع في الأندلس الزاهر .

ومن الله السداد والتوفيق .

الأندلس

في التاريخ الإسلامي *

تاريخ الأندلس - أيها السادة الأفاضل - عريض واسع ،
وسأعرض الى الخطوط العامة لهذا الموضوع وألقي بعض
الأضواء - ولو خافتة - على هذا التاريخ . فان التاريخ
الأندلسي تاريخ غني لا يمكنني في مثل هذه العُجالة إلا أن
أقدم بعض المقاطع أو اللقطات التي يمكن أن تُنظّم في عقد
واحد لتعطي فكرة - ربما مقتضبة - عن هذا الموضوع .

وسيتناول حديثي اليوم - عن تاريخ الأندلس - ثلاث
نواحي : الناحية السياسية والحضارية ، ثم أعرج للحديث
عما تبقى من تراث الأندلس الإسلامي قائماً حتى اليوم .

(*) هذا ملخص المحاضرة التي أُلقيت في النادي الأهلي بالرياض (السعودية)
في ٢٥ رجب ١٣٨٧ هـ / ٢٨ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٦٧ م . وقد
نشر في جريدة (الدعوة) الأسبوعية التي تصدر في الرياض ، العدد ١٢٧ ،
الاثنين ١١ شعبان ١٣٨٧ هـ / ١٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٧ .

ومن الجليل أن نُشير - أولاً - ونحن الآن في رَجَب الخير أنه حدثت فيه أحداث تاريخية مهمة ، منها أن إسرائ الرسول ﷺ ومعراجِه كانا في ٢٧ من هذا الشهر ؛ وأن تحرير بيت المقدس بقيادة البطل المسلم صلاح الدين الأيوبي كان في ٢٧ من هذا الشهر سنة ٥٨٧ هـ / ٢ تشرين الأول (أكتوبر) ١١٨٧ م ؛ كما إن حملة طارق التي قادها لفتح إسبانيا (الأندلس) كانت أيضاً في يوم الإثنين بداية شهر رَجَب سنة ٩٢ هـ / ٢٧ نيسان (أبريل) ٧١١ م ^(١) .

ولا بدّ من الإشارة إلى أن هذه الأعمال المجيدة في الفتح الإسلامي كانت نتيجة للقوة المعنوية والإيمان العميق بالدعوة الإسلامية وأهدافها، وذلك هو الأساس، إضافة إلى التسليح المادي والتنظيم التام والتخطيط الواعي .

فنحن في معركتنا مع إسرائيل لم يكن يعوزنا السلاح ولا الرجال ، بل كان الذي ينقصنا هو الإيمان بإسلامنا . فمق ما ملكنا هذا السلاح (الإيمان) والإيمان الواعي نستطيع يومها استرجاع فلسطين ونستعيد مكانتنا .

(١) انظر : ابن عذاري ، البيان المغرب ، ٦/٢ ؛ قرطوب ، العرب والإسلام في الحوض الغربي من البحر المتوسط ، ص ٨٣ . قارن : المقرئ ، نفح الطيب ، ٢١٦/١ ؛ عنان ، دولة الاسلام في الاندلس ، ٤١/١ .

كم للأندلس - أيها السادة - وقنع جميل وذكري نديّة ،
ولعلنا لمسنا جمال هذه الكلمة في موشّع ابن الخطيب :

جاءك الفيثُ إذا الفيثُ همى
يا زمانَ الوصلِ بالأندلسِ
لم يكن وصلك إلاّ حلماً
في الكرى أو خلسة المختلسِ

ومدلول كلمة « الأندلس » جغرافياً : هو كل ما كان تحت
حكم المسلمين من شبه الجزيرة الأيبيرية . فلو تصورنا خطأً
أفقياً من أقصى شمال البرتغال عند نهر دويره Duero يسير
مرتفعاً إلى الشمال ثم ينزل إلى الشرق حتى جنوب برشلونة
Barcelona على البحر المتوسط شمال مدينة طرّكونة
Tarragona شمال نهر إبره Ebro ، فما فوق هذا الخط يُمثّل
إسبانيا الشمالية (المسيحية) وما يقع تحته ، حتى مضيق جبل
طارق ، يُمثّل « الأندلس » أو إسبانيا الإسلامية . وليس
الأندلس هو المنطقة الجنوبية من إسبانيا أو شبه الجزيرة
الإيبيرية . وإن كلمة « أندلسيا (أندلسيّاً Andalusia) »
الإسبانية الحالية تشمل جنوب إسبانيا في التقسيم الإداري للدولة
الإسبانية . ويخلط البعض بجمل الأندلس تشمل - في المفهوم
التاريخي الإسلامي - جنوب إسبانيا فقط . فاصطلاح
« الأندلس » يشمل كل البرتغال الحالية تقريباً وأكثر

ويعني الأندلس - حضارياً - ذلك التراث الضخم والتاريخ الشامخ الذي خلفه المسلمون خلال ثمانية قرون ، مدة بقاءهم في الأندلس ، وكان لهم خلال ذلك نشاط ملحوظ في بقية أنحاء أوروبا ، ليس هنا موضع الحديث عنه .

إن عبور الإسلام إلى الأندلس يمثل عصرأ جديداً، إذ يكون المسلمون قد دخلوا - بذلك - أرضاً جديدة عليهم ، تختلف عما سبق أن فتحوه ، في شعبها ومناخها. ولعل هذا الاختلاف كان أحد الأسباب التي أدت إلى أن يُغلب المسلمون في معركة بلاط الشهداء التي حدثت في فرنسا في مكان يعرف بـ «توربواتيه Tours أو Poitiers» ، جنوب باريس بحوالي سبعين كيلو متراً. وكان قائد المسلمين في هذه المعركة والي الأندلس البطش عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ؛ وقائد جيش الفرنجة ، الذي تجمع من كافة مناطق الإمبراطورية الفرنجية ، هو شارل مارتل Charles Martel ، أو شارل المطرقة ؛ وكان ذلك في شعبان - رمضان سنة ١١٤ / تشرين الأول (أكتوبر) ٧٣٢ .

كان الفتح الإسلامي للأندلس (إسبانيا الإسلامية) بقيادة

(١) البكري ، جغرافية الأندلس وأوروبا ، ص ٥٩ ؛ فرثوخ ، نفس المصدر ، ص ٤٣ ؛ غنان ، نفس المصدر ، ٥٠/١ .

طارق بن زياد في ٧١١/٩٢ ، حين عبر المضيق وتجمّع جيشه في الجبل الذي سُمّي باسمه ، ولا يزال كذلك وبكل لغات العالم Gibraltar . ولعل ذلك خير مكافأة لهذا البطل المسلم الذي لا نعرف عن مصيره كثيراً ، ثم فَتَحَ - مع موسى بن نُصَيْمِر - كل شبه الجزيرة الإيبيرية تقريباً في أربع سنوات ، حيث بقي الإسلام في تلك البلاد ثمانية قرون .

أولاً : الجانب السياسي

مرت الأندلس خلال قرونها الثمانية بأحداث كثيرة وعصور عديدة وتقلبت بين الضعف والقوة ، القوة التي أخضعت كل الأعداء وجعلت كل دول العالم وحكامها تبعث بسفرائها إلى قُرْطُبَة تطلب وِدَّ خلافتها وتحرص على صداقتها ؛ والضعف المسمين الذي جعل المسلمين ، أيام ملوك الطوائف ، يستعين بعضهم على بعض بملوك إسبانيا الشمالية (المسيحية) . كما ترددت الأندلس خلال هذه القرون بين البطولة والإنهزامية ، البطولة من كل نوع وفي كل ميدان وبلغت من المكانة حيث أن حكام إسبانيا الشمالية يُحَاكِمُون خِلافة قرطبة فيما شَجَرَ بينهم ؛ وإنهزاميتهم التي دعت بعض حكام الأندلس إلى التنازل عن حصونهم وأرضهم والقبول بدفع الجزية لقاء وعود بمساعدات يتلقونها ضد خصومهم من الأقارب والإخوان . كان ذلك أيام الطوائف أو بعدها حيث انساق ملوك الطوائف إلى ممارسة كثير من التوافه .

من ذلك أن مَلِكَ سَرَقُسْطَة Zaragoza من قِبَل المرابطين ،
وهو أبو بكر بن تَيْفَاكُورِيت ، كان في مجلس غناء و غنته
إحداهن قصيدة لابن بَاجَه (الفيلسوف المعروف المتوفي سنة
٥٢٢ هـ) وكان مطلعها :

جَرَّرَ الذِّيلَ أَيُّهَا جَرُّ
وَصَلَّ الشُّكْرَ مِنْكَ بِالشُّكْرِ

فَطَرِبَ الْمَلِكُ الْمَدُوحَ وَصَاحَ : « واطرباه » وَشَقَّ ثِيَابَهُ
وَحَلَفَ بِالْأَيْثَانِ الْمُغْلَظَةِ أَلَّا يَمْشِيَ ابْنُ بَاجَهَ إِلَى دَارِهِ إِلَّا
عَلَى الذَّهَبِ (١) . فخاف الحكيمُ سُوءَ الْعَاقِبَةِ فَاحْتَالَ بِأَنْ جَعَلَ
فِي نَعْلِهِ ذَهَباً وَمَشَى عَلَيْهِ . وَلَا شَكَّ إِنْ مَثَلَ هَذَا الْمَلِكُ لَا يَصْلُحُ
لِإِدَارَةِ شُؤْنِ أُمَّةٍ ، وَبِمَثَلِ هَذِهِ التَّصَرُّفَاتِ وَغَيْرِهَا ضَاعَ
الْأَنْدَلُسُ الْحَبِيبُ .

وَيُقَسِّمُ المؤرخون تاريخ الأندلس إلى عدة فترات :

١ - فترة الولاية : من بداية الفتح حتى مجيء عبد الرحمن
الأول (الداخل) في ١٣٨ هـ / ٧٥٥ م . وَحَكَمَ الْأَنْدَلُسَ فِي هَذِهِ
الْفَتْرَةِ ، الَّتِي دَامَتْ حَوْلَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، عَشْرُونَ وَآلِياً .

(١) انظر : حسن احمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، القاهرة ،

٢ - فترة الإمارة: وتمتد حتى قيام الخلافة الأموية في الأندلس على يد الخليفة العظيم عبد الرحمن الناصر سنة ١٦/٥٣٩م.

٣ - فترة الخلافة : وتمتد حتى سقوط الدولة العامرية في سنة ٤٠٠هـ / ١٠٠٩م ، أو قبل ذلك .

٤ - فترة ملوك الطوائف : وتمتد حتى قيام دولة المرابطين في الأندلس في ٤٨٤/١٠٩١ .

٥ - فترة المرابطين ثم الموحيدين في الأندلس والتي تنتهي - تقريباً - بقيام دولة غرناطة سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م .

٦ - دولة غرناطة التي سقطت على يد المليكين الكاثوليكين (فرديناند Ferdinand ملك أراغون Aragon وإيزابيلا Izabella ملكة قشتالة Castilla وليون Leon) في ١٨٩٧هـ / ١٤٩٢م . وبسقوط غرناطة ينتهي حكم الإسلام في شبه الجزيرة الإيبيرية .

وفما يلي قائمة نسب حكام بني أمية في الأندلس :

قائمة نسب حكام بني أمية في الأندلس

(١) عبدالرحمن الأول (الملقب بالداخل) بن معاوية بن هشام

(١٣٨ - ١٧٢ هـ / ٧٥٥ - ٧٨٨)

—

(٢) هشام الأول بن عبد الرحمن الأول

(١٧٢ - ١٨٠ / ٧٨٨ - ٧٩٦)

—

(٣) الحكم الأول بن هشام الأول

(١٨٠ - ٢٠٦ / ٧٩٦ - ٨٢٢)

—

(٤) عبد الرحمن الثاني (الأوسط) بن الحكم الاول

(٢٠٦ - ٢٣٨ / ٨٢٢ - ٨٥٢)

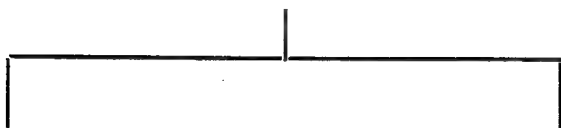
—

(٥) محمد الاول بن عبد الرحمن الاوسط

(٢٣٨ - ٢٧٣ / ٨٥٢ - ٨٨٦)

—

(٥) محمد الاول بن عبد الرحمن الاوسط



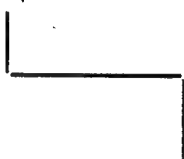
(٧) عبد الله بن محمد الاول

(٢٧٥ - ٣٠٠ / ٨٨٨ - ٩١٢)

تولى الحكم بعده حفيده :

(٦) المنذر بن محمد الاول

(٢٧٣ - ٢٧٥ / ٨٨٦ - ٨٨٨)



(٨) عبد الرحمن الثالث (الناصر لدين الله) بن محمد بن عبد الله

(٣٠٠ - ٣٥٠ / ٩١٢ - ٩٦١)



(٩) الحكم الثاني (المستنصر بالله) بن عبد الرحمن الثالث

(٣٥٠ - ٣٦٦ / ٩٦١ - ٩٧٦)



(١٠) هشام الثاني (المؤيد بالله) بن الحكم الثاني

(المتوفي حوالي ٤٠٣ / ١٠١٣)

ويروي لنا المؤرخون بهذه المناسبة قصة 'مؤثرة' ، ذلك ان أحد ملوك غرناطة محمد الحادي عشر ، الملقب بـ « أبو عبد الله الصغير » (بالفرنجي : بوبديل Boabdil) ، حين رحل عن غرناطة متوجهاً الى فاس بالمغرب ، وكانت معه أمه عائشة ، توقفت عند مرتفع يُشرف على مدينة غرناطة اسمه « تل البذول Padul » ونظر بحسرة باكية الى غرناطة الجميلة ، وأجشش بالبكاء وصاح : « الله اكبر » فقالت له أمه : « نعم ابكِ مثل النساء على ملئكِ لم تُحافظ عليه مثل الرجال » .

وهكذا ضاع الاندلس حيث تفككت وحدته واستهان حكامه وجعلوا مصالحهم فوق كل شيء حين القوا بإسلامهم ظهرياً .

بلغت الأندلس في عهد الخلافة ، أيام عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر ، قمة القوة السياسية في العالم المعروف يومها . وتقرَّبَ الى الخلافة أقوى الحكام كالامبراطور أوتو الأول إمبراطور المانيا والبابا ، زعيم العالم المسيحي ، كلهم يخطبُ ودّه وصداقته . بل إن بعضهم يطلب التوسط في حل مشكلات معينة .

ونتيجة لهذا الاستقرار كان هناك الإنتاج الحضاري الضخم الذي أنتج لنا ذلك التراث الرائع في كل ميادين الحياة وكافة فروع المعرفة . ويوم سادت الفوضى وذهبت المثُل ضاعت

وَحَدَّةَ الأندلس ؛ وإن كانت الروح الإسلامية قد ظهرت في فترات متقطعة في أيام ضَعْف المسلمين فَأَرَكْنَا صورة رائعة ناصعة وذلك مثل أيام المرابطين ومعركة الزَّلَاقَةِ في ١٠٨٦/٥٤٧٩ م التي أظهر فيها المسلمون بطولات نادرة .
والاسلام - أيها السادة - صانع البطولات .

ثانياً - الجانب الحضاري

شمل الإنتاج الحضاري الإسلامي عموماً ، والأندلسي على وجه الخصوص ، كل النواحي في العلوم والفنون والآداب ، فكانت كل هذه الميادين مزدهرة بانتاجها وبرجالها الأعلام . فكانت الأندلس - كما تعلمون - أَوَّلَ مَعَارِبِ حضارة الإسلام إلى أوروبا ، وعلى أساس منه قامت حضارة اليوم . فالأرقام الفرنجية الحالية مثلاً هي عربية ، ربما من أصل هندي طَوَّرَهُ المسلمون ^(١) .

ولم يكن التقدم الحضاري في العلوم أقل منه في الآداب إن لم يزد ، فان ملك ليون Leon (دويلة إسبانيا المسيحية) قد عُزِلَ من مَنْصِبِهِ لأن سمنته غدت مُفَسِّرَ طَعة منعه ركوب الخيل وبالتالي من قيادة المعارك ومن أعماله الأخرى . ولم يفلح هذا الملك (سَانْجُو الأول Sancho I الملقب بالسمين) في

(١) حقي ، تاريخ العرب ، ٦٨١/٢ ؛ عاشور ، المدنية الإسلامية ، ص ٩٨ - ١٠٠ ؛ هونكه ، شمس العرب تسطع على الغرب ، ص

العودة الى عرشه ، فلم يجد إلا أن يستعين بالسلطات الأندلسية .
وفعلًا استقبله عبد الرحمن الناصر في بلاطه القرطبي ودعا
الأطباء لعلاج فشهفي من سمته ، وفعلًا عاد الى منصبه .

ولدينا أعلام عالقة في كل مكان ، يُذكرُ منهم على
سبيل المثال : ابن حَيَّات القرطبي الذي لقَّبَ بـ « شيخ
المؤرخين الأندلسيين » وهو صاحب الطريقة العلمية النقدية في
التاريخ ، ومن مؤلفاته كتاب « المُتَجَبِّس في أخبار بلد
الأندلس » الذي يقع في عشرة أجزاء فُقدَ أكثرها ؛ وابن
حزْم الأندلسي ، العبقري الذي أنتجت في كل ميدان وكان
مُبَرَّرًا في كل منها ، وهو صاحب كتاب « طوق الحمامة » في
فن الحب والمحبين ^(١) ، ولقد أحصى ابنه مؤلفاته فكانت
حوالي ٤٠٠ مجلد ؛ وأبو عبيد البكري ، الجغرافي الذي سبق
عصره والذي قال بكروية الأرض وبرهن عليها في القرن
الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ^(٢) ؛ والعباس بن
فرناس ، صاحب أول محاولة عملية في الطيران ؛ وأبو القاسم
الزهرائي ، أيام الخليفة الناصر ، الطبيب الذي بقيت كتبه
مُعتمَدة في كليات الطب الأوروبية طيلة قرون عديدة . وهو
الذي توصل الى استخراج الحصاة من المثانة أو تفقيتها ، وإجراء

(١) انظر موضوع : ابن حزم من خلال كتابه « طوق الحمامة » ؛

وموضوع : ابن حزم الاندلسي الفقيه الأديب .

(٢) البكري ، جغرافية الأندلس وأوروبا ، ص ٤٣ .

عمليات في المين وغيرها .

وحتى في الموسيقى والغناء ، فكان هناك الغناء والموسيقى الشعبية والتي بقاياها الآن في البرتغال ، ما يعرف بموسيقى الفارو ، وفي اسبانيا . وكذلك الموسيقى « الكلاسيكية » القديمة ، التي أدخلها زرياب القرطبي ^(١) الذي أسس أول معهد موسيقي في الأندلس وكانت له طريقته الخاصة .

فلنا في كل علم وفن تراث ضخم وأشخاص لامعون .

فكانت قرطبة تزخر بكل هذا ، وهي العاصمة التي كانت أضواؤها العامة تترى على بعد أميال وشوارعها مبلطة يوم كان في باريس لا بد لمن يخرج من داره في يوم مطير أن يخوض الأوحال .

ويقول الشاعر في وصف قرطبة :

بأربعٍ فاقتِ الأقطارَ قرطبةُ

منهن قنطرةُ الوادي وجامعُها

هاتانِ ثلثانِ والزهراءُ ثالثُها

والعلمُ أعظمُ شيءٍ وهو رابعُها

ويُذكر أن الخليفة الحكم المستنصر أجرى الماء إلى

(١) باعتبار مَهْجَرِه وموطنه الجديد (قرطبة) .

مسجد قرطبة الجامع من عين يجبل قرطبة في أنابيب الرصاص
التي وضعها في قنوات حجرية متقنة البناء تحفظها داخلها .
وقد وصف أحد الشعراء هذا فقال (١) :

وَقَدْ خَرَقْتَ بُطُونَ الْأَرْضِ عَنْ نَظْفٍ
مِنْ أَعْدَبِ الْمَاءِ نَحْوَ الْبَيْتِ تُجْهِرُهَا
طَهْرُ الْجُؤُومِ إِذَا زَالَتْ طَهَارُهَا
رَيُّ الْقُلُوبِ إِذَا أَحْرَتْ صَوَادِيهَا
قَرَنْتَ فَخْرًا بِأَجْرِ قَلِّ مَا اقْتَرْنَا
فِي أُمَّةٍ أَنْتَ رَاعِيهَا وَحَامِيهَا

ثالثاً : التراث الباقي في إسبانيا

يتمثل هذا في ثلاثة مظاهر ، أجمالها فيما يأتي :

١ - العمارة : وتتمثل بالمباني الإسلامية المتبقية حتى الآن
والتي تشير الى المستوى المعماري وإلى الفنية في البناء ، وذلك
مثل مسجد قُرْطُوبَة الجامع وقصر إشبيلية وقصر الحمراء
الذي يُعَدُّ أعجوبة الزمان في فنيته وهندسته وجمال زخرفته ،
وإن هذه المباني لا تزال تحتفظ بألوانها الجميلة .

(١) سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، ص ٣٩٣ - ٤ .

٢ - حياة الناس في إسبانيا متأثرة إلى حد كبير في كثير من النواحي . ففي البناء نجد أثر الفن الأندلسي وفي اللغة نجد كلمات كثيرة جداً من أصل عربي كالقطن Algodon والمخدة Almohada والقائد Alcaide والقاضي Alcalde وغيرها وفير . كما نجد أسماء الأماكن الجغرافية والمحلات والمدن لا يزال كثير منها يحمل أسماء عربية . كما نلاحظ التأثير في حياة الناس ، في عاداتهم وحق في أسلوب حديثهم ^(١) .

٣ - المخطوطات :

الحديث عن هذا الموضوع طويل . ومجمله أن المخطوطات الأندلسية كانت كثيرة ولكنها أصيبت بنكبات متتالية أودت بقسم كبير منها ، من حرق وضياع وإهمال . ولا زال بعضها أو أقلها - وهو كثير - مفسَّرق في خزائن المكتبات في إسبانيا والبرتغال وغيرها . ويذكر على سبيل المثال مكتبة قصر الإسكُورِيال El Escorial الذي يقع على بعد خمسين كم شمال غرب مدريد . تضم هذه المكتبة حوالي الألفين من المخطوطات العربية القيِّمة التي تشمل ميادين كثيرة ^(٢) .

(١) عنان ، الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال ، ص ٤٣٦ -

٥٤٤ ؛ لطفي عبد البديع ، الإسلام في إسبانيا ، ص ٨٥ - ١١٦ .

(٢) عنان ، الآثار الأندلسية ، ص ٤٣٠ - ٤٣٥ .

وهنا أدعو المسؤولين الى الاهتمام بهذا التراث بانشاء المعاهد وتخصيص الأموال اللازمة ومساعدة الباحثين المتخصصين للعمل على بعث هذا التراث وإحيائه قبل ان يمتلكه يد الضياع . فهو بحاجة الى اليد العاملة الحريصة والجهة المسئولة الغنية تنفق عليه وتساهم في بعثه إلى النور ، وذلك واجب الدول الإسلامية ، والعربية منها خاصة ، وغيرها ممن يشعر بصلة نحو هذا التراث الزاهر . ولقد أخذ الإسبان ، منذ بدأ هذا القرن ، الاهتمام به ورعايته .

والآن فان واجب الدول الإسلامية وجامعة الدول العربية ليس أقل من الدولة الاسبانية نحو هذا التراث المشرق المشرق .

مما سبق - أيها السادة - تبينت لنا بعض الخطوط عن تاريخ الأندلس حيث استمر الإسلام هناك ثمانية قرون . وتعرضنا للحديث عن حضارته التي ساهمت الى حد كبير - مع بقاع الحضارة الإسلامية الأخرى - في بناء حضارة الإنسان الحالية ، وعمّا تَبَقَّى من هذا التراث العزيز الذي يحتاج الى خدمة واعية ومخلصة .

ورأينا - كذلك - كيف أن الأندلس يمثل جزءاً من التاريخ الإسلامي بكل ما فيه من تمثيل للعقيدة الإسلامية أو إنحراف عنها ، ومن جهاد بطولي وتضحية أو تخاذل وضع وأثره ؛

وبكل ما فيه من عبقرية وإبداع فكري وبناء حضارة شاملة
أو هدم لما أبدعت العقول المؤمنة ولما شادته يد المسلم ، يوم
ألقي الإسلام ظهريا ؛ وبكل ما فيه من مثل فاضلة عالية
أو سقوط وانحراف عن هذه المثل .

وهكذا إطرَدَت الحضارة والقوة والتقدم واقرنت مع
درجة التمسك بالاسلام والاعتداد بمبادئه السامية .



طارق بن زياد بطل أبت التاريخ، إلامكفأته *

في تاريخ الأندلس متعة وعذوبة، وكثير من أحاديثه بحاجة الى جهود الباحثين لكشف جوانب عظيمة من التراث الاسلامي في شبه الجزيرة الايبيرية (اسبانيا والبرتغال اليوم) . ولكلمة الأندلس رنين ساحر معبر وموسيقى عذبة مطربة ، لما فيها من ذكريات ثمانية قرون ، اختلط النصر فيها بالهزيمة والعزة بالضعفة . ونعني « بالأندلس » تلك المناطق من شبه الجزيرة الايبيرية التي كانت تحت الحكم الاسلامي والواقعة جنوب الخط الممتد من نهر دويره Duero غرباً الى برشلونة شرقاً ، اي تشمل كل البرتغال الحالية تقريباً واكثر اسبانيا .

وقصة فتح الأندلس او اسبانيا الاسلامية قصة شيقة، بدأت

* القى من اذاعة بغداد ونشر في جريدة (الشهاب) اللبنانية ، العدد الرابع، السنة الاولى، ٤ شوال ١٣٨٦ / ١٥ كانون الثاني ١٩٦٧ .

مشاهدها في مثل هذا الشهر الميمون (رمضان) ، بعد أن وافق الخليفة الاموي في دمشق ، الوليد بن عبد الملك ، على اقتراح موسى بن نُصَيْير والي الشمال الافريقي على فتح اسبانيا واختبارها بالسرايا أولاً .

عبر طريف بن مالك المضيق الى اسبانيا ، بأربع سفن ساعد بها يليان حاكم سبته من قبل الدولة القوطية في الاندلس . وكانت قوة طريف العسكرية - كحملة استطلاعية - تتكون من خمسمائة محارب منهم مئة فارس . وتم عبورها الى الاندلس في رمضان سنة ٩١ هـ / ٧١٠ م واستقرت في المكان الذي حمل اسم قائده الحملة « جزيرة طريف » . وبعد جولات خفيفة ناجحة عاد طريف الى موسى بالاخبار السارة المشجعة . وعلى أساس النجاح الذي لقيه طريف جهز موسى حملة « الفتح » ، التي قادها أحد ضباطه الذين عُرفوا بالبطولة المتواضعة والحنكة الذكية والعسكرية المتفانية ، كان ذلك طارق بن زياد الذي امتلأ اخلاصاً وحماسة لنشر الاسلام عبر المضيق .

كانت مثل هذه الخطوة طبيعية بعد استقرار الاسلام في المغرب بشكل جعل أهله أنفسهم يتحمسون لحمل راية الدين الجديد . فكانت فكرة فتح اسبانيا إسلامية ، تمثل موجة المد الاسلامي التي حملها الفاتحون حباً في نشر عقيدة الاسلام ومبادئه الانسانية التي ما عُرفت ولن تُعرف مثلها شرفاً وشمولاً .

وفي السنة التالية ٩٢ هـ / ٧١١ م سار طارق بجيش قوامه

سبعة آلاف جندي عبروا المضيق ليعسكروا في الجبل الذي
 خلد ، والمضيق قبله ، اسم هذا القائد وبكل لغات العالم « جبل
 طارق Gibraltar ومضيق جبل طارق » فكانت هذه هي
 المكافأة العظيمة التي حظي بها هذا العبقري ، بجانب اقتران
 اسمه خلال التاريخ بالبطولة المؤمنة ونكران النفس . سار
 القائد يفتتح المناطق المجاورة بسهولة ، وحينما سمع لذريق
 Rodrigo ملك اسبانيا القوطي بأخبار هذه الحملة بدأ يجمع جيوشه
 لمواجهة فاجتمعت أعداد كبيرة أوصلتها بعض الروايات الى ما
 يزيد على مئة ألف محارب . وحينما سمع طارق بأخبار هذا
 التجمع كتب بالأمر الى موسى بن نصير الذي أرسل نجدة من
 خمسة آلاف جندي . فكملت عدة الجيش الاسلامي اثني عشر
 ألفاً ، أكثرهم من البربر الذين كانوا متحمسين لنشر العقيدة .

ويذكر بعض المؤرخين أمراً لا يمكن أن نمر عليه هنا دون
 تعليق . ذلك ان طارق قد أحرق السفن التي عبر فيها من سبتة
 الى الجبل ، ليقطع كل أمل للمحاربين في العودة ، الأمر الذي
 يدفعهم الى الاستماتة . ولا أميل الى تصديق هذه الرواية ، إذ
 أنه من غير المعقول ان يقدم طارق على مثل هذا العمل وهو في
 أرض جديدة منقطعة ، وأمام دولة كثيرة الجيوش ، فما كان
 يغيب على مثل ذلك انه سيحتاج الى النجدة ، ولقد تم ذلك
 فعلاً حين استجاب موسى لاستنجاهه بخمسة آلاف جندي ؛ كما
 أن السفن (كلها أو بعضها) التي استعملها طارق كانت ملكاً

ليليان حاكم سبنة كمساعدة للجيش الاسلامي .
سار طارق بقواته المتواضعة عدداً المتعالية بقوة العقيدة
وسمو الهدف ليلتقي بقوات الجيش القوطي الكثيرة عدداً وعدة ،
المتهافئة معنوية . كان اللقاء عنيفاً حاسماً في تقرير المصير ، لا
مصير الجيشين فقط بل - وهذا أهم - مصير العقيدة والغاية التي
حملها الجيش الفاتح إلى هناك ، ومصير اسبانيا التي أرهقها
الحكم القوطي ظمناً وفوضى . كان اللقاء في نهاية رمضان سنة
٨٩٢ / أواسط حزيران ٧١١م عند نهر السبرباط Barbate ، غير
بعيد من وادي لكه في شمال الجزيرة الخضراء جنوب اسبانيا .
ويظهر انه لا صحة للخطبة المنسوبة الى طارق والتي ألقاها أمام
جنده قبل المعركة مخاطباً : « أيها الناس : أين المفر ؟ البحر
من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله إلا الصدق
والصبر ... » فلم يكن طارق - وهو من البربر - قد وصل
إلى مستوى من الفصاحة ما يُمكنه لارتجال مثل هذه الخطبة .
ولكن المعقول انه خاطبهم بما يثير حماسهم .

دام الالتحام بين الجيشين حوالي اسبوع قرر مصير شبه
الجزيرة الايبيرية . فكان النصر حاسماً للمسلمين ، تشتت جيوش
القوط وقاتل الملك لذريق في تلك المعركة التي فقد فيها 'ملكه'
ولم يُعثر له على أثر . واستمرت موجة الفتح منتصرة لم توقفها
المقاومات المتفرقة . وكان الكثير من الشعب الاسباني قد
رحب بها ووجد فيها المنقذ . واستمر هذا المد في التقدم الذي

أقر الحكم الإسلامي في شبه الجزيرة الايبيرية ،ذلك الحكم الذي جعل من قرطبة العاصمة فيما بعد « درة العالم » المزدهرة حضارة وتقدماً . وهكذا قامت هناك للإسلام دولة أنبتت أعظم حضارة .

ويوم كانت الأندلس في القرن العاشر الميلادي تفخر بالمستوى العلمي الذي وصلته وبكثرة جامعاتها ومكتباتها العامة كانت أوروبا في عصور قائمة من الظلام . وحين كانت قرطبة تزدهر بالمصاييح شوارعها المبلطة التي تمتد أميالاً، كانت عواصم أوروبا محرومة من أي مصباح عمومي ولا يستطيع أحد الخروج من داره في يوم مطير من غير أن يخوض الأوحال . وبينما كانت بعض الجامعات الاوروبية تعتبر الاستحمام عادة وثنية كانت قرطبة تباهي بحماماتها الجميلة الانيقة .



موسى بن نصير

بطل أنكر ذاتَه *

كان الشمال الافريقي ، أيام الفتوح الأولى ، بحاجة إلى رجل حكيم قدير لا يعتمد على القوة وحدها في تثبيت حكم الاسلام هناك . إلى رجل يُتِمّ الأعمال العظيمة ويؤكد السيرة الكريمة لأسلافه قادة الشمال الافريقي وفاتحيه أمثال عُقبة بن نافع الفهري وحسان بن النعمان وغيرهما . فكان هذا الرجل موسى بن نصير اللخمي الذي ولي حكم إفريقية والمغرب نحو سنة ٨٦ هـ / ٧٠٥ م واستمرت ولايته لعشر سنوات حتى ٩٥ / ٧١٤ ، كانت السنوات الأربع الأخيرة هي التي شاهدت فتح الاندلس ، أيام الخليفة الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦ هـ / ٧٠٥ - ٧١٥ م) .

ولد موسى سنة ١٩ هـ / ٦٤٠ م في الشام ، وكان أبوه (نصير)

* أُلقي من إذاعة بغداد ، ونشر في جريدة (الشهاب) اللبنانية ، العدد السابع (السنة الأولى) ، ٢٠ ذي القعدة ١٣٨٦ / ١ آذار (مارس) ١٩٦٧ .

من سبي خالد بن الوليد في عين التمر (قرب الكوفة) سنة اثني عشرة للهجرة . نشأ موسى في بيت وثيق الصلة بالإدارة والجنديّة ، فكان كفؤاً لتولي حكم شمال افريقية ثم إفتتاح الأندلس (١) .

لقد استقر الفتح الاسلامي في المغرب ، نظراً للسياسة التي اتبعها موسى ومن سبقه . والوسيلة هي أن يكون السكان هناك حماة للدين الجديد يحيطونه بقلوبهم . وبفضل جيوش الدعاة الذين انبثوا هناك ينشرون الاسلام تحول سكان الشمال الافريقي (وهم من البربر) إلى جند لهذا الدين يتحمسون لحملة إلى الناس بأمانة . وفعلاً فطلّاع الفتح الاسلامي لاسبانيا وقائدُهم طارق كانوا من هؤلاء الأبطال .

كان طارق بن زياد قد عبر إلى الاندلس في ٧١١ هـ / ٧١١ م وقد لاقت كل عملياته الحربية النجاح التام ، وسار حتى وصل مدينة 'طليطلة' Toledo ، عاصمة اسبانيا القوطية ، وذلك بعد مرور سنة على عبوره . كان طارق ، كمهدنا به ، ذلك القائد المخلص للفكرة والهدف وللقائمين عليها ، فكان على صلة دائمة بموسى ينبؤه بأخبار الفتوح أولاً بأول . وبناء على طلب طارق

(١) عن موسى بن نصير راجع : ابن عذاري ، البيان المغرب ، ١٩/٢ - ٢٣ ؛ شيت خطاب ، قادة فتح المغرب العربي ، ٢٢١/١ وبعدها ؛ مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ٨٤ وبعدها ؛ عنان ، دولة الاسلام ، ٥١/١ وبعدها ؛ سالم ، تاريخ المسلمين ، ص ٩١ وبعدها .

النجدة من موسى أو ملاحظته هو من مكاتبات طارق له ان لا بد من حملة أخرى تجتاز المضيق الى الاندلس . أمام هذا النجاح الهائل لحملة طارق (ووراء النجاح مسئوليات ومنجزات لا بد من المحافظة عليها) جهز موسى حملة من ثمانية عشر ألف مقاتل ، وبقيادة موسى نفسه . ولا صحة - عندي - لما يُروى من أن موسى قام بهذه الحملة بعد أن أكل الحسدُ قلبه للنجاح الذي حالف طارق منفرداً . فإن طارقاً كان يفتح الفتوح باسم موسى الذي كان متأكداً من اخلاص طارق ، وإلا فما الذي منع موسى من عزله وهو الذي ولاه؟ ولماذا لم يعبر إلى الاندلس إلا بعد سنة من عبور طارق ؟ لكن موسى ، في الحقيقة ، وجد أن طارقاً تقدم بسهولة ، ربما غير متوقعة ، وان الجيش الذي معه غير كاف للمسئوليات الجديدة والأعباء التي تفوق امكانياته . وخوفاً على الجيش أن تُقطع عليه الطرق ويحيط به الأعداء قاد موسى ، بعد طارق بسنة ، حملته وسلك طريقاً في الفتح غير الذي سلكه .

وبعد مرور ما يقرب من سنة على عبور موسى التقى القائدان عند مدينة طَلَبِيرَة Talavera ، شمال غربي طَلَيْطَلَة ، وكان بما قاله طارق لموسى : « أيها الأمير : والله لا أرجعُ عن قصدي هذا ما لم أنتهِ إلى البحر المحيط أخوض فيه بفرسي » . وبعد أن قضيا الشتاء فيها ووضعاً خطة الفتح ، سارا سوياً حتى مدينة سَرَقُسْطَة Zaragoza ، حيث افترقا .

توجه طارق شمالاً ثم مال شرقاً فغرباً وفتح مدينة ليون Leon وأستترقة Astorga . وسار موسى يحيشه نحو الشرق ففتح برشلونة Barcelono ، التي بقيت تحت الحكم الاسلامي حتى سنة ١٨٥ هـ / ٨٠١ م ، ثم عبر جبال البرت Pyrenees إلى فرنسا وفتح مدينة نربونة Narbonne ، حيث لا تزال آثار المسلمين ومسجدهم هناك . وعاد موسى الى الاندلس وفتحت قريبا كل شبه الجزيرة الإيبيرية (إسبانيا والبرتغال اليوم) . فسار حتى بلغ مدينة خيخون Gijon على الساحل الشمالي لاسبانيا عند خليج بسكاي Biscay فخاض بجحله شاطئ البحر عند صخرة بلاي Pena de Pelayo . ودخل كثير من أهل البلاد في الاسلام ، وأمن الناس على حرياتهم وعقائدهم كما هو مألوف ومعروف في الشريعة الاسلامية في كافة العصور .

ولا ننسى ان عمر موسى في هذا الوقت كان يزيد على خمس وسبعين سنة . لكن قوة العقيدة وعزيمة الإيمان جعلاه نشاط الشباب وهمة الفتيان ، فكان يريد بعد أن يتم فتح اسبانيا أن يعبر جبال البرت الى فرنسا مستمراً في الفتح . ويُروى أن موسى عبّر عن هذه العزيمة بقوله : « أما والله لو انقادوا إليّ لقدمهم الى رومية [روما] ثم يفتحها الله على يدي إن شاء الله » .

ونتيجة للسياسة التي اتبعها البلاط الأموي في دمشق تجاه الفتوحات الاسلامية في الغرب فقد طلب الخليفة الوليد بن عبد الملك الى موسى وطارق العودة الى الشرق . ولم يجد موسى

'بداً من تلبية الأمر ، والحسرة تملأ جوانحه . وبعد أن عين
 موسى ابنه عبد العزيز والياً على الاندلس ، متخذاً من إشبيلية
 Seville عاصمة له ، عاد مع طارق إلى دمشق . ووصل البطلان
 دمشق نحو بداية جمادى الأولى ٩٦ هـ / منتصف كانون الثاني
 (يناير) ٧١٥ م . وحينما توفي الوليد ، بعد ذلك بقليل ، ورثه
 أخوه سليمان الذي ما عرّف قدير موسى ولا ثمن خدماته
 العظيمة للإسلام . وعاش موسى بقية حياته ، وتوفي سنة ٩٧ هـ /
 ٧١٥ م ، محروماً منكوباً من قبل سليمان .

وإذا كان المؤرخون قد اختلفوا في أصل موسى أهو عربي
 أم فارسي ؟ أو لم تتفق آراؤهم حول مصيره ونهايته ، أو ان خلافة
 دمشق لم تقدر جهده وحسن بلائه ؛ فإن التاريخ والناس يعرفون
 موسى ، ذلك القائد المسلم العظيم الذي أنكر ذاته وبذل حياته
 خدمة للإسلام وعقيدته وحرصاً على نشرها . فقد كانت همته
 لا تعرف الخوف ولا يجد الكلل إليها سبيلاً . ولو قُدِّر له أن
 يستمر وطارق (بطلا فتوحات الغرب الاسلامي) لأتمما - على
 الأقل - تثبيت الاسلام في كل شبه الجزيرة الإيبيرية وربما في بلاد
 الغال Gaul (فرنسا) أيضاً، خاصة وان موجة المد الاسلامي يومها
 كانت في أوجها وفتوتها . ومن يدري لربما كان قُدِّر لعقيدة
 الاسلام أن تبقى حتى اليوم في اسبانيا أو وجدت طريقها إلى
 أنحاء أوربية أخرى ، ولما كانت معركة بلاط الشهداء ولا هزيمتها .
 لم يكن موسى عسكرياً ذكياً وقائداً جريئاً فقط بل كان

إدارياً حازماً من الطراز الأول . فعلى الرغم من أنه كان منشغلاً في الفتوحات في الاندلس فند أبرم العهد مع أهل البلاد الذين دخل كثير منهم الاسلام ، وطمان مَنْ بقي منهم على دينه وأعطاهم على ذلك المواثيق ؛ ونظم البلاد إدارياً ، حتى أنه سك عملة إسلامية (ولأول مرة) في الاندلس .

رحم الله موسى التابعي الجليل الذي يرجع إليه فضل عبور الإسلام إلى أوروبا ، ويرحم أمثاله من الأبطال الذين خلدتهم أفعالهم العظيمة ومعها مضوا في ضمير التاريخ وغدوا بها أمام الناس عمالقة كباراً .



عبد الرحمن الداخل هَارِبٌ مِنَ الْمَوْتِ يَبْنِي دَوْلَةً *

تُشير سنة ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م إلى نهاية الدولة الأموية في الشام على أيدي العباسيين الذين تتبعوا الأمويين في كل مكان تشريداً وقتلاً . ولم ينجُ مَنْ نجا من هذه المطاردة إلاّ بأعجوبة . لكن عبد الرحمن الداخل لم ينجُ فقط بل استطاع أن يبني دولة في أرض الغرب الاسلامي ، في الأندلس .

هرب عبد الرحمن (الداخل) بن معاوية ، حفيد الخليفة الأموي العاشر هشام بن عبد الملك ، من الشام الى تونس ثم الى المغرب ، وكان معه غلامه بدر . وهناك بدأ يُعد العدة لتهيئة الظروف له في الاندلس .

* أُذيع من راديو بغداد ، ونُشر في جريدة (الشهاب) ، السنة الأولى ، العدد الثامن ، ٥ ذي الحجة ١٣٨٦ / ٥ آذار (مارس) ١٩٦٧ .

كان والي الاندلس في هذا الوقت يوسف بن عبد الرحمن الفهري، وكان مُنشغلاً ببعض الأعمال الحربية في شمال الاندلس أو في الشمال الإسباني، حيث قامت جماعات من بلاد البشكنس Basques وجليقية Galicia بمهاجمة الاندلس. في هذا الوقت أعدَّ عبد الرحمن الداخل الخطة للعبور الى الاندلس. وفي ١٣٨هـ / ٧٥٥ م كان قد نزل في ثغر المُنكَب Almunecar على ساحل الاندلس الشرقي ، وبدأ التقدم نحو قرطبة العاصمة . وبعد أن فشلت المفاوضات بينه وبين والي الاندلس ، التقى الطرفان في معركة المُصَارَة (المُسَارَة) على ضفة نهر الوادي الكبير Guadalquivir عند قرطبة ، انتصر فيها الداخل وتمت له البيعة أميراً على الاندلس في صيف عام ٧٥٦ م .

سُمِّيَ عبد الرحمن بـ «الداخل» لأنه أوّل مَنْ دخل الاندلس من الأمويين حاكماً بعد زوال دولتهم في المشرق . كما سُمِّيَ بـ «الأول» ، لأنه أول ثلاثة حكام في الاندلس تسمَّوا بهذا الاسم من الأمويين .

استمر حكم الداخل للاندلس ثلاثاً وثلاثين سنة استطاعَ فيها أن يقوم بأعمال جليلة. وَحَّد الاندلس، التي كانت مضطربة، وقضى على الثوار في الداخل وأوقف أطماع الشمال الإسباني ودولة الفَرَنْجَة ، واستطاع إعادة وَحدة الاندلس التي ربما كاد فقدانها يؤدي إلى ضياعه كله. وقام باصلاحات عدة وَنظَّم

شئون الدولة . فيعود الفضل إلى همته ونشاطه وخفة حركته في إقرار الأوضاع في الاندلس .

ومن هنا سماه أبو جعفر المنصور ، وهو خصمه ، بـ « صَقَر قريش »^(١) . كما وصفه ابن حَيَّان القُرطبي ، شيخ المؤرخين الاندلسيين ، بقوله : « كان عبد الرحمن راجحَ الحلم ، راسخ العلم ، ثاقب الفهم ، كثير الحزم ، نافذ العزم ، بريئاً من العجز ، سريع النهضة في طلب الخارجين عليه ، متصل الحركة ، لا يخلد إلى راحة ، ولا يسكن إلى دعة ولا يَكِلُ الأمور إلى غيره ، ثم لا ينفرد في إبرامها برأيه ، شجاعاً مقداماً ، بعيد الغور شديد الحذر ، قليل الطمأنينة ، بليغاً ، مفوهاً ، شاعراً ، محسناً ، سمحاً ، سخياً طلق اللسان »^(٢) .

ولعل أهم أمرين يُذكران ، في أيام الداخل ، هما : أنه في حوالي ١٦١ هـ / ٧٧٨ م سار شارلمان Charlemagne إمبراطور دولة الفرنجة لغزو الاندلس تلبية للدعوة التي وجهها إليه بعض الثائرين ضد سلطة قرطبة . فسار شارلمان بجيش صخم ، مخترقاً جبال البُرْت Pyrenees حتى وصل مدينة سرقسطة

(١) المَقَرِّي، نفح الطيب ، ٣٠٩/١ ؛ ابن عذاري، البيان المُغَرَّب ، ٥٩/٢ .

(٢) عَنان ، دولة الإسلام ، ١٩٢/١ .

Zaragoza ، لكن المدينة استطاعت الوقوف ضد شارلمان وجيشه الجرار ، الذي اختاره من خيرة محاربيه ، مما اضطره الى أن يعود أدارجه خائباً . وبينما هو يعبر جبال البُرتْ عائداً إلى بلده من ممر باب الشيزرو ، المسمى رونسفال Roncesvalles ، ذلك الممر الضيق المحاط بالمنحدرات الوعرة ، داهمته قوةٌ مُكوّنة من الجيش الاندلسي ومن البَشْكُنْس الذين خرب شارلمان عاصمتهم ، بَنبُلُونَة Pamplona ، مرتين . فهاجمت هذه القوة مؤخرة جيش شارلمان وقضت عليها وأخذت كل من وما كان فيها من الرهائن والغنائم . وكان في المؤخرة عدد من خيرة ضباط شارلمان وقادته ، كان منهم رولان الذي أصبحت الأغنية التي نظمت فيه « أنشودة رولان La Chanson de Roland » مصدراً لقصص الفروسية في العصور الوسطى الأوروبية . وما يزال حتى اليوم قبر هذا القائد موجوداً في مكان الحادث ويحمل تاريخ « ١٥ آب (أغسطس) ٧٧٨ »^(١) .

كان من آثار هذه الحادثة أن تغيرت السياسة الفرنجية التوسعية تجاه الاندلس وقامت صلاتُ صداقة وود ، حتى ليقال إن شارلمان عرض على عبد الرحمن الداخل عقد معاهدة صداقة وأن يُزوَّجَه ابنته ، فقبل الداخل الصداقة ورفض الزواج . ويقول المقرري في نفجه : « وخاطبَ عبدُ الرحمن

(١) سالم ، تاريخ المسلمين ، ص ٢٠٢-٣ .

قارلُهُ [شارلمان] مَلِكَ الإفرنج ، وكان من طغاة الإفرنج ،
بعد أن تَمَرَّسَ به مَدَّة ، فأصابه صُلْبُ المَكْسِر ، ثمَّ
الرجولية ، فمَالَ معه الى المداراة ودَعَاهُ إلى المصاهرة والسُّلْم ،
فأجابهُ للسُّلْم ولم تَمِ المصاهرة ،^(١) .

ويشار بهذه المناسبة الى إنه لا صحة لما يقال من وجود
معاهدة ثنائية كانت بين الخلافة العباسية ودولة الفرنجة من
جهة ضد حكومة قرطبة والدولة البيزنطية من جهة أخرى ،
إذ ليس لهذه الفكرة أي دليل غير الظن .

أما الأمر الثاني المهم الذي يُذكر أيام الداخل أنه : هو
الذي أسس مسجد قرطبة الجامع في ١٧٠ هـ / ٧٨٦ م ، وقد أتم
بناءه مَنْ جاء بعده من الأمراء والخلفاء حتى غدا هذا المسجد
أعظم آيات الفن المعماري لا في الاندلس وحدها بل في العالم أجمع .
وغدت أعمدته أشبه بغابة جميلة تُعَدُّ ما يقرب من ألف
وأربعمئة عمود لا يزال قائماً منها دون الألف .

وفي هذا المسجد وغيره من الآثار المعمارية حكاية جانب
من قصة حضارة الاسلام في أرض الاندلس الزاهر .

(١) نفح الطيب ، ٣١٠/١ .

صورة من الدبلوماسية الأندلسية *

حديث الدبلوماسية في الأندلس - خاصة في الفترة
الاموية - شيق ممتع في مطالعته وتدبره ، غير سهل في تجميع
مادته او الكتابة فيه ، وذلك لاسباب منها :

أ - فقدان كثير من المصادر الأصلية القيّمة التي لا نعرف
غير اسمائها او بعض المنقولات عنها .

ب - جدّته على البحث المنهجي ، وتشتت مادته التي
تحتاج - بما تحتاج اليه - الى الامام بلغات عدة .

ولقد ظهرت عنه مؤخراً عدة أبحاث ، كما تعرض له البعض
بصورة جزئية . ولكنه لا يزال بحاجة الى أبحاث تُكرّس له ،

* نشر في مجلة « الوعي الاسلامي » التي تصدرها وزارة الأوقاف
والشئون الاسلامية بالكويت ، السنة الثالثة ، العدد الخامس والعشرون ، محرم
١٣٨٧ / أبريل (نيسان) ١٩٦٧ .

لتسلط عليه الأضواء الكافية لتجلية الجوانب المجهولة منه .

ولا بد لدارس الدبلوماسية - عموماً والأندلسية على وجه الخصوص - أن يتناول هذا الموضوع من الناحية التاريخية والفنية بالإضافة إلى العلاقات العلمية (الفكرية) ، والتبادل الثقافي أو الدبلوماسية الثقافية التي تتأثر - إلى حد - بالوضع السياسي .

فالناحية التاريخية :

تقوم على ما وصلنا من النصوص - وكثير منها عام ، مبهم أحياناً - لمحاولة فهمها على ضوء الاحداث التاريخية ، ومسا دَوْنَه مؤرخو الامم المعاصرون لها من جانبهم ، والاطلاع على ما كتبه الباحثون منهم فيما بعد ؛ وتمحيص كل ذلك ، ثم إيجاد العلاقة بين هذه النصوص من ناحية ، وبين الاحداث التاريخية التي ترتبط بها من ناحية أخرى ، للوصول الى استنتاج معقول جهد الامكان . ولا بد من الأخذ بعين الاعتبار الدوافع التي دعت إلى هذه المناشط الدبلوماسية لكلا الطرفين ، والمبادئ التي قامت عليها وأثرت فيها والاهداف التي عملت لها ، والخط الخلفي الذي واكبها وتحركت فيها ومقدار الإلتزام بقيمتها وعهودها ثم النتائج التي أثمرتها .

أما الناحية الفنية فتتناول :

١ - الطريقة التي كانت تتم فيها هذه الدبلوماسية والتقاليد

التي تبنتها وحافظت عليها ومراسيم استقبال السفراء الوافدين الى بلاط قرطبة ، من مختلف الاقطار ، وطريقة استقبال الأمير أو الخليفة لهذه السفارات ، ثم الأبهاء التي كانت هذه الاستقبالات تتم فيها .

٢ - طريقة اختيار السلطات الأندلسية لسفرائها ودراسة شخصية السفير ومرافقيه .

٣ - لغة الدبلوماسية وطريقة التفاهم من وإلى الحاكم ، بالنسبة لسفراء الأندلس الى الاقطار الاخرى - اسلامية أو غير اسلامية - أو العكس .

وهذه النقاط الثلاث ترسم لنا صورة عن التقاليد الدبلوماسية لذلك العصر .

٤ - محاولة المقارنة بين هذه التقاليد وبين بعض مظاهر الدبلوماسية الحديثة ، من ناحية وجود « الفنية » في قواعد الدبلوماسية الاندلسية « البرتوكول Protocol » والحصانة الدبلوماسية والتمثيل الدائم^(١) ، وكما أثرت في الدبلوماسية الحديثة .

(١) عثرت على « مثل » للتمثيل الدبلوماسي الدائم بين الأندلس والشمال الإسباني . فقد ذكر ابن حيان القُرطُبي أن الحكم المستنصر عيّن كلا من أحمد بن عمرو العريف وسعيد صفيّين دائمين لدى مملكة ليون = Leon

هـ - تأثر الدبلوماسية وتأثيرها في الوضع الحضاري وفي مستوى التقدم العلمي الذي تعيشه الدولة ، مع التركيز على ما يتعلق بالاندلس .

وقد يقود هذا الموضوع إلى دراسة البعثات « السفارات » العلمية التي وفدت إلى الاندلس ، لتنهل من منابع المعرفة فيه والتزود من حضارته .

إن الدبلوماسية تزدهر بازدهار الحضارة وتمكُن الاستقرار والتقدم مما يجعل ذلك البلد - خاصة في تلك القرون - مقصداً للسفارات القادمة إليه من الاقطار الاخرى ، طالبة صداقته والاستفادة مما عنده ، يتلو ذلك توجه السفراء منه إلى تلك الاقطار أو بعضها .

ولقد ازدهرت الدبلوماسية في الاندلس ، وماج بلاط قرطبة - في فترات كثيرة - بالسفراء من الشرق والغرب ، خاصة في عصر قرطبة الزاهر في القرن الرابع الهجري / العاشر

= (جِلِّيقيّة Calicia) . انظر : ابن حيان، الإقتبس في أخبار بلد الاندلس، مخطوط الأكاديمية التاريخية بمديرية (مجموعة كوديرا F. Codera رقم ٢) ، الأوراق : ٤٢ أ - ب ، ٨٨ أ . وقد نُشر هذا الجزء من « المُقتَبَس » في بيروت ، ١٩٦٥ . وقصة التمثيل الدائم ، المذكورة آنفاً، تقع في الصفحات ٧٦ ، ١٤٧ .

الميلادي^(١) ، خلال حكم عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر .

ويوجز لنا ابن حَيَّان القُرْطُبِي ، مؤرخ الاندلس ، ذلك - حين الحديث عن الناصر - بقوله: «إنَّ مُلْكَ الناصر بالاندلس كان في غاية الضخامة ورفعة الشأن ، وهادته الروم وازدلفت اليه تطلب مهادنته ومتاحفته بعظيم الذخائر . ولم تبقى أمة سمعت به من ملوك الروم والإفرنجية والمجوس وسائر الامم إلا وفدت عليه خاضعة راغبة وانصرفت عنه راضية »^(٢) .

ومن الامثلة التي تصور لنا بعض جوانب الدبلوماسية الاندلسية حضورُ السفارة الالمانية التي أرسلها الامبراطور أوتو الاول (الكبير) Otto I, The Great - الذي تسميه الرواية الاسلامية^(٣) 'هُوتُو أو هُوْتَه' - الى بلاط الخليفة الناصر .

ولا تمدنا المصادر الاسلامية عن هذه السفارة إلا بمعلومات

(١) وصفت الشاعرة الألمانية Hroswitha (القرن العاشر الميلادي) قُرْطُبِيَّةً بأنها : « جوهرة العالم » .

Lévi - Provençal , *La Civilisation Arabe en Espagne* , p. 114.

(٢) المَقْرِي ، نفح الطيب ، ٣٤٣/١ .

(٣) البكري ، جغرافية الأندلس وأوروبا ، ص ١٧٠ .

موجزة ، وهي تسمى الالمان بـ « الصقالبة » (١) . لكن المصادر الأوروبية تقدم - بهذا الصدد - تفصيلات أكثر ، وإن كانت تنظر الى الموضوع من وجهة خاصة قد تقودها أحياناً الى بعض الاحكام غير الدقيقة القائمة على توهمات ليس من الصعب معرفة بعدها عن الواقع . وأغنى مصدر عن هذه السفارة هو تاريخ حياة السفير الالماني الذي كتبه أحد تلامذة السفير باللاتينية (٢) .

والسبب المباشر - وربما الوحيد - لهذه السفارة هو محاولة رجاء قُرطبة في استعمال سلطتها لايقاف خطر أندلسي نشأ فيما وراء جبال البُـرُـنات Pyrenees .

ففي حوالي ٨٩٠ م رست سفينة صغيرة الى الشاطئ الجنوبي الشرقي من فرنسا قرب مرسيليا تحمل حفنة من المغامرين

(١) ابن خلدون ، العَبَر ، ٤ / ٢ / ٣١٠ ؛ ابن عذاري ، البيان المغرب ، ٢ / ٢١٨ .

(٢) رينو ، تاريخ غزوات العرب ، ص ٢٣٠ . يحتوي هذا الكتاب على تعليقات كثيرة قيمة للمترجم (شكيب أرسلان) ، وهو - في أكثره - مترجم عن الأصل الفرنسي لكتاب رينو الذي مترجم كذلك إلى الانجليزية :

Reinaud, *Muslim Colonies in France, Northern Italy and Switzerland*, Eng. tr. H. Kh. Sherwani, Lahore, 1964 .

كما ترجم أرسلان ، مع هذا الكتاب ، كتاباً آخر من الألمانية مؤلفه السويسري : F. Keller .

الإندلسيين، الذين ازداد عددهم فيما بعد واستطاعوا أن يؤسسوا
هناك دويلة في منطقة البروفانس Provence شمال طولون
Toulon ، متخذين من قلعة فراكسنيثوم Fraxinetum الحصينة
عاصمة لهم. والراجح ان قرية كارد فرينيه Garde - Frainete -
الحالية تمثل مكان هذه القلعة^(١) والتي يسميها الجغرافيون المسلمون
بـ « جبل القلال » ،^(٢) .

واستمرت هذه الدويلة قائمة حوالي تسعين سنة ، لا نعرف
عنها إلا اليسير ؛ بل من العجب اننا لا نعرف اسم أحد من قادتها
او افرادها ولا تفصيلات عن نظام الحياة فيها ، وهل استعمل
سكانها لغات أخرى الى جانب العربية ؟ إن كانت بقيت العربية
لغة لهم ! ولعل حياتهم الحربية لم تسمح للآخرين بالتعرف عليها ،
وبالتالي لم يكن من بينهم مؤرخ يسجل لنا مجريات الامور فيها .

ولقد اتسعت رقعة الارض التي سيطروا عليها حتى امتدت
الى أكي Acqui ، شمال جنوة في ايطاليا ، وسنت غالن
St. Gallen وخور Chur في شمال شرق سويسرا^(٣) .
واعتقد الامبراطور الالماني ، أوتو الاول ، تبعيتهم للخلافة

(١) رينو ، ص ٢٠٩ - ٢١١ .

(٢) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ٢٠٤/١ ؛ رينو ، ص ٢١١-٢١٤ .

(٣) Liudprand, *The Works of Liudprand of Cremona* ' (٣)

Eng, tr. F. A. Wright, London, 1930, pp. 90, 144.

القرطبية ، فأراد التوسط لدى الخليفة الناصر بإيقاف هجماتهم على تلك المناطق فبعث بسفرائه الى قرطبة لهذا الغرض .

تركت رسل الامبراطور اوتو المانيا براً عبر فرنسا حتى مرسيليا ، حيث ركبوا البحر الى برشلونة ومنها كتبوا إلى والي 'طرطُوشة' - أقرب مدينة اندلسية اليهم - يخبرونه بقدومهم ، فأجابهم والي 'مرحبا' بهم وأكرم وفادتهم لدى وصولهم . وأخبر والي الخليفة بذلك فأصدر الخليفة عبد الرحمن الناصر (المتوفى ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م) أوامره بتسهيل سفرهم ، وأن يُستقبلوا أحسن استقبال في كافة المدن التي يمرون بها في طريقهم إلى قرطبة . ووصلت السفارة الالمانية العاصمة الاندلسية - للتفاوض في أمر الدويلة القائمة في جبل القلال - حوالي ٣٤٢ هـ / ٩٥٣ م برئاسة الحَبَر المتبحر « يوحنا الغورزيني John de Gorze » يحمل رسالة الامبراطور وهدايا الى الخليفة ؛ واستقبلهم الخليفة الناصر كريم الاستقبال وأنزلهم قصرأ مجهزاً بكل أسباب الراحة ، أعدَّ خصيصاً لهم وهو « منسية الناعورة » في جنوب غربي قرطبة (١) .

مشكلة دبلوماسية

وبعد أن أخذ الوفد الضيف راحته وزال ما به من عناء

(١) عن هذه المنية راجع : ابن حبان ، المُقْتَبِس ، ٣ / ٣٨ .

تلك الرحلة الطويلة الشاقة بدأت الترتيبات اللازمة والمراسيم التقليدية لتعيين يوم مقابلة الوفد الألماني للخليفة الناصر ، وعرف المكلفون بإعداد التمهيدات الخاصة بالمقابلة فحوى رسالة الامبراطور وهدف سفارته ، التي ترمي كما قلنا : الى استعمال سلطة الخلافة الاندلسية لايقاف هجمات المغامرين في فراكسنيثوم .

ونظراً لشدة لهجة رسالة الامبراطور الألماني ، وانتقادها لبعض الآراء السياسية للخلافة القرطبية ^(١) ، قرر الناصر بأن مقابلة السفارة الألمانية له يمكن ان تتم فقط بدون تلك الرسالة ، لكن رئيس السفارة - يوحنا - رفض بإصرار مقابلة الخليفة بدون الرسالة . ولم يستطع المكلفون بهذا الأمر إقناع السفير الألماني بالتخلي عن رأيه . فما هي يا ترى الخطوة التالية ؟

سفارة الى المانيا

استقر رأي الخليفة - بعد المشاورات ومع السفير الألماني أيضاً - على إرسال سفارة اندلسية الى الامبراطور الألماني لشرح الموقف وإقناعه بتبديل الرسالة بأخرى مناسبة . وكان لا بد من اختيار سفير يقوم بهذه المهمة خير قيام ويتحمل تبعات الرحلة الطويلة . وفي ربيع سنة ٩٣٤٤ هـ / ٩٥٥ م رحل الوفد

(١) قارن : رينو ، ص ٢٣١ ؛ عنان ، دولة الإسلام في الأندلس ،

الأندلسي من قرطبة لهذا الغرض قاصداً المانيا، برئاسة الأسقف القُرطبي ريثموندو Recemundo ، الذي تسميه الرواية الاندلسية « ربيع بن زيد » (١) . وكان ربيع هذا أحد المستعربين Mozarabes الذين يحمدون العربية واللاتينية على السواء، وكان ممن عملوا في بلاط الناصر وابنه الحكم المستنصر (٢)، وعيّنه الناصر أسقفاً لمدينة إلبيرة Elvira مكافأة على قيامه بهذه السفارة .

سافر الوفد الاندلسي ، عبر الشمال الإسباني وبلاد الغال (فرنسا) ، إلى فرانكفورت حيث كان يقيم الامبراطور الالماني . فاستقبل اوتو السفارة الاندلسية بحميل الاستقبال وكريم الوفادة ، ووافق على كتابة رسالة جديدة رقيقة اللهجة تحل محل الاولى .

مقابلة الخليفة

نجحت مهمة السفارة الاندلسية ، وعاد ريثموندو وصحبه إلى قرطبة ، بعد غيبة استمرت حوالي خمسة عشر شهراً . ثم جرت التمهيدات ليوم إستقبال الخليفة للسفارة الالمانية . وتعين يوم ٢١ حزيران (يونيو) ٩٥٦ م موعداً لذلك ، واتخذت

(١) ابن خلدون ، نفس المصدر والصفحة .

(٢) انظر : عنان ، نفس المصدر ، ٤١٦ / ٢ .

الأستعدادات اللازمة وأقيمت الزينات واصطف الجند بمراتبهم المختلفة وأسلحتهم المتنوعة على جوانب الطريق . وبينما يسير الوفد الألماني كانت فرق من الجند تعترض الافانين من ألعاب الفروسية الرشيقة ، احتفالاً بهذه المناسبة .

وخرج الناس ليشهدوا الإحتفال بهذا اليوم ، وسار الموكب من مدينة قرطبه الى القصر الخلفي بمدينة الزهراء ، التي كانت — ولا تزال بقايا آثارها — تقوم عند أقدام « جبل العروس »^(١) ، على بعد خمسة أميال تقريباً شمال غربي قرطبة . ولدى وصول الوفد الألماني مدينة الزهراء كان كبار رجال الدولة في استقباله .

وتقدم الموكب الى القصر الذي كانت مداخله مفروشة بالسجاد الجميل ، فوصلوا الى حيث كان يجلس الخليفة الناصر — متربعاً على سريرته ، ومتكئاً على الوساد — في الجناح الشرقي من القصر ، في بهو السفراء المسمى بـ « المجلس المؤنس » ، الذي تم العثور عليه خلال التنقيبات في ١٩٤٤^(٢) . فرحب الخليفة بالوفد اجمل ترحيب ، وبدأ الحديث بعبارات المجاملة والثناء على الامبراطور الألماني .

ولم يتناول الحديث في هذه المقابلة الهدف الرئيسي بالتفصيل ،

(١) المقرري ، النفع ، ٢ / ٦٥ .

(٢) عنان ، ٢ / ٤٠٣ .

فكان أشبه بلقاء التعارف . ثم تلتها لقاءات أخرى بين الخليفة والوفد الألماني ، اقتنع الوفد خلالها بوجهة نظر قرطبة ، وأنها لا سلطة لها على أولئك المغامرين في فراكسنيثوم (جبل القبال) ولا هم تابعون لها ؛ وبذلك أعطيت للسلطات الألمانية مطلق الحرية في اختيار طريقها لعلاج هذه المشكلة .

وفي أواسط صيف ٩٥٦ م ترك الوفد الألماني قرطبة ، بعد توديع الخليفة له شخصياً ، عائداً الى بلده بعد ثلاث سنوات أقامها في قرطبة ، قيل ان يوحنا - رئيس الوفد - تعلم خلالها العربية وحمل معه الى ألمانيا بعض المخطوطات العربية ^(١) .

إن هذه السفارة وأمثالها تلقي الضوء على التقاليد الدبلوماسية التي كانت في ذلك العصر ، وليس في الاندلس وحده ولكن في تلك الدول التي تبادلت وإياه النشاط الدبلوماسي . وهذا الأمر يحتاج الى جهود كبيرة من الدارسين لهذا الحقل الذي لا يزال بكثراً .

والأمل الآن ان تظهر عن هذا الموضوع - قريباً - الى عالم التأليف من البحوث ما تتناسب وأهميته وجماله البالغين .

(١) حق ، تاريخ العرب ، ٢ / ٧٠١ .

يَا مُحَنَّةَ الْقَالِي ! *

لعل الكثير منا يعرف شيئاً عن الأديب اللغوي إسماعيل بن القاسم المعروف بـ « أبو علي القالي » البغدادي ، صاحب كتاب « الأمالي » الذي أُلِّفَ للخليفة الأندلسي الحكم المستنصر (ابن عبد الرحمن الناصر) المتوفى سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م . وكان القالي (٢٨٨ - ٣٥٦ هـ / ٩٠١ - ٩٦٧ م) قد رحل من بغداد الى الأندلس في سنة ٣٣٠ / ٩٤١ أيام الخليفة عبد الرحمن الثالث (الناصر لدين الله) . وقد استقبله الناصر إستقبالاً كريماً وأَوْسَعَ له في كَنْفِهِ .

لكن - ربما - لم يأتنا خبر ذلك الموقف المخرج والمحنة القاسية التي تُعْتَبَرُ أصعب ما مرّ في حياة أديبنا الكبير (القالي) . ففي سنة ٣٣٦ / ٩٤٧ وفدت على البلاط القرطبي سفارة من

(*) نشر في (الشهاب) اللبنانية ، العدد الثاني ، السنة الثانية ، ١٧ -

١١ - ١٣٨٧ هـ / ١٥ - ٢ - ١٩٦٨ م .

قُسْطَنْطِين السَّابِع إِمْبَرَاطُور بِيْزَنْطِيَّة (القُسْطَنْطِينِيَّة ،
إِسْطَنْبُول حَالِيًا) ، تَحْمِلُ الْهَدَايَا الثَّمِينَةَ إِلَى الْخَلِيفَةِ الْإِنْدَلُسِي
عَبْد الرَّحْمَنِ النَّاصِر (١) .

أَقَامَ النَّاصِر بِهَذِهِ الْمُنَاسِبَةِ حَفْلَ إِسْتِقْبَالٍ رَافِعٍ ، وَكَانَ يَوْمًا
مَشْهُودًا ، لِتَكْرِيمِ الْوَفْدِ الْبِيْزَنْطِي فِي قَصْرِ قُرْطُبَةٍ . وَكَانَ ضَمْنِ
بِرَنامِجِ الْإِحْتِفَالِ أَنْ تُتْلَى خُطْبَةٌ مُنَاسِبَةٌ . فَاسْتَدَتْ هَذِهِ الْمَهْمَةُ
إِلَى الْفَقِيهِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْبَرِّ ، وَلَمَّا قَامَ لِيُتْلِيَ خُطْبَتَهُ أَذْهَلَهُ
الْمَوْقِفُ فَلَمْ يَهْتَدِ إِلَى جُمْلَةٍ ، وَسَقَطَ عَلَى الْأَرْضِ مَغْشِيًا عَلَيْهِ .
وَعِنْدَ الْخُرُوجِ شَدِيدًا فَاتَّجَهَتْ الْأَنْظَارُ إِلَى أَبِي عَلِيٍّ الْقَالِي ، الَّذِي
كَانَ يُعْتَبَرُ مِنْ أَمْرَاءِ الْكَلَامِ وَفِرْسَانِ اللُّغَةِ . وَهَدَأَتْ نَفُوسُ
النَّاسِ - إِلَى حِينٍ - وَهُمْ يَرُونَ أَبَا عَلِيٍّ يَقِفُ لِيَبْدَأَ خُطْبَتَهُ .

وَمَا أَنْ وَقَفَ الْقَالِي مُبْتَدئًا خُطَابَهُ بِحَمْدِ اللَّهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ
بِمَا هُوَ أَهْلُهُ وَصَلَّى عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ حَتَّى انْقَطَعَ بِهِ الْكَلَامُ وَوَقَفَ
وَاجِمًا حَائِرًا مَفْكَرًا فِي كَلَامٍ مُنَاسِبٍ يَذْكُرُهُ ، وَلَكِنْ دَوَّنَا
جَدْوًى . وَهَنَا تَأَزَّمُ الْمَوْقِفَ أَيْمًا تَأَزَّمُ !! إِذَا كَانَ أَمِيرُ الْكَلَامِ
وَأَسْتَازُ الْأَدَبِ وَاللُّغَةِ قَدْ وَجَمَ وَأَذْهَلَهُ الْمَوْقِفُ فَأَرْتَجَّ عَلَيْهِ ،
فَمَنْ يَأْتُرَى سَيَقُومُ بِإِنْقَاذِ الْمَوْقِفِ وَحَلِّ الْأَزْمَةِ ؟؟ وَلَمْ يَحُلِ الْعَقْدَةُ
وَيُنْقِذَ مِنَ الْحَنَةِ غَيْرَ قَاضِيِ قُرْطُبَةٍ مَنذَرِ بْنِ سَعِيدِ الْبَلَاثُوطِيِّ

(١) النَّبَاهِي ، تَارِيخُ قِضَاةِ الْإِنْدَلُسِ ، ص ٦٦ ؛ وَرَاجِعِ الْمَقَالَ التَّالِي .

الذي قام من ذاته ، ودون تحضير سابق ، وابتدأ حديثه
- 'موصلاً خطبة القالي - بكلام بليغ أثار إعجاب الحاضرين
ودمشتهم .

لله درّ البلوطي ويا لمحنة القالي . ولكن لا بأس عليك
يا أبا علي ، فلكلّ لسان حبسة ولكلّ خطيب سكتة .



حفل دبلوما سي في قصر قرطبة الزاهر *

للاندلس رنين طرب في آذان المسلمين وقلوبهم ، يصاحبه
أسى الذكرى على فقدانها . وقد يتعدى هذا الرنين الى كل من
تربطه بهذا التاريخ النضر رابطة من غير المسلمين . أقام المسلمون
في الأندلس (إسبانيا الاسلامية = إسبانيا والبرتغال اليوم)
ثمانية قرون (٩٢-٨٩٧ هـ / ٧١١-١٤٩٢ م) . وصلت حضارتهم
فيها الى أعلى مستوى وصلته حضارة الاسلام في أي مكان بل
وربما أربت عليه . كانت عصر خلافة قرطبة في القرن الرابع
الهجري / العاشر الميلادي هو قمة هذه الحضارة التي أسهمت في
تطور الانسان وعلى قواعد منها قامت حضارة العالم اليوم ، وان
كانت هذه الحضارة الحالية قد غفلت عن روعة الروح التي

* نُشر في العدد : ٧٦ من « الملحق الأسبوعي » لجريدة « الجمهورية »
البغدادية ، الخميس ١٩٦٧/٢/٢٣ .

انتجت تلك الحضارة : الروح الاسلامي الانساني النزعة .

كان الخليفة عبد الرحمن الثالث الملقب بـ «الناصر لدين الله» ، المتوفى سنة ٣٥٠ هـ ، يعتبر يومها من أقوى حكام العالم ، إن لم يكن أقوامهم طُرّاً . فكانت كل الدول ، حتى البعيدة منها ، ترسل سفاراتها طالبة ود قرطبة ومصادقتها . وينقل لنا المَقْرِي ، بصدد هذا الموضوع ، عن ابن حَيَّان القرطبي قوله : « إن مُلْكَ الناصر بالاندلس كان في غاية الضخامة ورفعة الشأن ، وهادته الروم ، وازدلفت اليه تطلب مهادنته ومتاحفته بعظيم الذخائر ، ولم تبق أمة سمعت به من ملوك الروم والافرنجة والمجوس وسائر الأمم إلا وفدت عليه خاضعة راغبة ، وانصرفت عنه راضية » (١) .

وهناك أيضاً السفارات الثقافية التي كانت ترد قرطبة ، عروس الاندلس ، لتتلقى العلم في جامعاتها وتنهل من أفانين المعرفة فيها ، استوى في ذلك داني البلاد وقاصيها .

لدينا واحدة من هذه السفارات التي وفدت الى قرطبة أيام الخليفة عبد الرحمن الناصر . روى هذه السفارة الطريفة عدد من المؤرخين الاندلسيين بأسلوب شيق منهم : ابن عذاري في البيان المُقَرَّب وابن خلدون في العِبَر والمَقْرِي في نفح الطيب

(١) المَقْرِي ، نفح الطيب ، ٣٤٣/١ .

وأبو الحسن النُّبَاهِي في تاريخ قضاة الأندلس^(١) وغيرهم^(٢). ولئن كان هؤلاء المؤرخون قد اختلفوا في التاريخ المحدد الذي حضرت فيه هذه السفارة إلى قرطبة فإنهم اتفقوا على أكثر تفاصيلها .

ففي سنة ٣٣٦ هـ / ٩٤٧ م حضرت إلى قرطبة رسل امبراطور الروم في القسطنطينية (اسطنبول) قسطنطين السابع بن ليون المعروف بالارجواني « بورفيروجينيتوس » ، وافدين على الخليفة الناصر جالبين أنفس الهدايا كان منها كتابان : كتاب « ديسقوريدس Dioscorides » عن الحشائش ومركبات الأدوية ، مكتوب باللغة الاغريقية (اليونانية) . وديسقوريدس هو اسم المؤلف الذي عُرف الكتابُ باسمه . وكان الكتاب الثاني هو كتاب « أورشيسوس (هروسيسوس أو هروشيس) Poulus Orosius » . وهو كتاب باللاتينية عن تاريخ العالم من أيام آدم (عليه السلام) حتى سنة ٤١٦ م . ألفه هروسيسوس في سنة ونصف معتمداً على كتابات من سبقه .

أخرج الناصر القادة وكبار رجال الدولة لتلقيهم قبل وصولهم قرطبة ، ثم أنزلوا أحد قصور الضيافة ، وهو « مُنْيَة الحَكَم المستنصر » ، والمُنْيَة هو القصر . و لكل لرعايتهم والسهر

(١) ص ٦٦ ؛ وكذلك المقال السابق .

(٢) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ٢/٢١٥ ؛ عنان دولة الاسلام في الأندلس ، ٢/٤١٠ - ٤١٤ .

على راحتهم أناس متخصصون . وحتى هذه اللحظة كان الناصر في قصر « الزهراء » المدينة الخليفة ، التي تقع عند أقدام جبل العروص على بعد خمسة أميال شمال غربي قرطبة . ويسمى هذا الجبل الآن بالاسبانية : سيرا دي كوردوبا 'Sierra de Cordoba' أي جبال قرطبة .

رحل الناصر من قصر الزهراء الى قصر قرطبة لاستقبال وفد بيزنطة ، وقعد لاستقبالهم في « يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة ٣٣٦ هـ / بداية أيلول (سبتمبر) ٩٤٧ م » ، وذلك في قاعة الاحتفالات الدبلوماسية في قصر قرطبة ، القاعة المسماة بـ « بهو المجلس الزاهر » . وجلس الناصر محفوفاً عن يمينه ويساره بأبنائه وحجابه ووزرائه وكبار رجال الدولة ، وكان يوم الاستقبال يوماً مشهوداً . جاء الوفد البيزنطي من مكان ضيافتهم الى قصر قرطبة ، مارين وسط الناس ومراتب الجند الشاكين في أسلحتهم المختلفة ، حتى وصلوا قاعة الاستقبال ، وقد بهر الوفد بأبهة السلطان وبهجة الحكم . فقدّموا رسالة قيصرهم مكتوبة باللغة اليونانية بالذهب في ورق ذي لون سماوي في داخله رقعة مصبوغة ومكتوبة بالفضة بنفس اللغة ، فيها وصف هدايا امبراطور القسطنطينية . وكان على الرسالة طابع ذهب وزنه أربعة مثاقيل ومرسوم على أحد وجهيه صورة السيد المسيح (عليه السلام) وعلى الوجه الآخر صورة الامبراطور قسطنطين وصورة ولده رومانين - رومانوس

الثاني - وكانت الرسالة موضوعة داخل غطاء فضة منقوش ، عليه غطاء ذهب فيه صورة قسطنطين الملك معمولة من الزجاج الملون البديع . وقد كُتِبَ على الرسالة سطران . الأول : قسطنطين ورومانين المؤمنين بالمسيح الملكان العظيان ملكا الروم . والسطر الثاني : الى العظيم الاستحقاق للفخر الشريف النسب ، عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالاندلس ، أطال الله بقاءه .

تسلم الناصر هذه الرسالة وما فيها من الهدايا ومنها الكتابان اللذان ذُكِرَا آنفاً .

كان جاري العادة في مثل هذه المناسبات أن يقوم الخطباء والشعراء بإلقاء كلمات وقصائد مناسبة يرحبون فيها بالوفد ويعظمون من شأن الاسلام والخلافة ويشكرون الله على نعمه وإعزاز دينه . وكان قد تولى ترقيب هذه المهمة الحكيم الثاني - المستنصر بالله - ابن الخليفة الناصر وولي عهده . وتقرر أن يقوم الفقيه محمد بن عبد البر بإلقاء الخطبة ، وكان معروفاً بأنه صاحب قدرة عظيمة في الكلام .

وهنا يحدث ما ليس في الحسبان . وقف الفقيه ليلقي كلمته ولكن بهرته أهية الموقف وجلال المقام ، فأرتجّ عليه القول فما اهتدى إلى عبارة ولا انبس ببنت شفة ، بل عُشي عليه وسقط

من طوله على الأرض ، وأصبح الموقف حرجاً ، وما درى الناس ما العمل ، وتلفتوا بحثاً عن يسد هذا النقص .

كان بين الحاضرين الأديب اللغوي وافد العراق ، صاحب كتاب الأمالي ، اسماعيل بن القاسم البغدادي المعروف بـ « أبو علي القالي » ، الذي رحل عن بغداد الى الاندلس مستقراً فيها سنة ٣٣٠ هـ / ٩٤١ م . توجهت الأنظار الى هذا الأديب الكبير لينقذ الموقف . وطلب الى القالي ، أمير الكلام ، أن يقوم ليرقع هذا الوهي . وفعلًا قام القالي : فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله وصلى على نبيه محمد ﷺ ... ! ثم توقف ؟! زاد الموقف حرجاً ، ما الذي حدث ؟! انقطع القول بأبي علي القالي ووقف واجماً مفكراً - عبثاً - في كلام يتم به خطبته ، فلم يهتد الى مقالة . فما العمل يا ترى ؟

هنا يظهر رجل الموقف ، متطوعاً من ذاته ودون تحضير . ذلك هو قاضي الجماعة بقرطبة « منذر بن سعيد البكوطي » . فابتدأ حيث انتهى القالي بكلام عجيب كأنما كان يحفظه قبل ذلك فكان مما قاله بعد الديباجة : « ... ان من الحق أن يقال للمحق صدقت وللمبطل كذبت ... وإني أذكركم بأيام الله عندكم وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين التي لمت شعثكم ... ألم يتلاف صلاح الأمور بنفسه بعد اضطراب أحوالها ... ؟ حتى باشره بالهجة والأولاد واعتزل النسوان وهجر الأوطان ورفض الدعة وهي محبوبة ، وترك الركون الى الراحة وهي مطلوبة ، بطوية

صحيحة وعزيمة صريحة ... فأصبحتم بنعمة الله اخواناً ... حق
تواترت لديكم الفتوحات ، وفتح الله عليكم بخلافته أبواب
البركات ، وصارت وفود الروم وافدة عليه وعليكم ... فاعتصموا
بما أمركم الله ... وأستغفرُ الله الغفور الرحيم فهو خير الغافرين .
وقد أنشد البلوطي أثناء خطبته هذه أبياتاً له ، منها :

مقالي كعبد السيف وسط المحافل
فرقتُ به ما بين حق وباطل
بقلب ذكي ترتني جرائئه
كبارق رعد عند رعرش الأنامل
لخير إمام كان أو هو كائن
لمقتبل أو في العصور الأوائل
تري الناس أفواجاً يؤمّون بابهِ
وكلهم ما بين راج وآمل
وفود ملوك الروم وسط فنائه
مخافةً يأس أو رجاءً لنائل
فعش سالماً أقصى حياة مؤملاً
فأنت رجاء الكل حاف وناعل

وبهذا الموقف حاز القاضي البلوطي إعجاب الحاضرين
ودهشتم ، وكان الخليفة الناصر أشدهم إعجاباً به . ومنذئذٍ

علت منزلته لدى الناصر ولدى إبنه الحكم المستنصر بعد ذلك.

ثم عاد سفراء بيزنطة مكرمين الى بلادهم بعد ان حققت سفارتهم ما يرجى منها من عقد معاهدة صداقة وسلام مع قرطبة .

ولم تكن هذه السفارة إلا أحد الوفود الدبلوماسية الكثيرة التي قصدت قرطبة من كل فج وحذب ، الوفود التي ماجت بها الدروب الى قرطبة يوم كانت عروس الاندلس تتيه وتمرح في أفراح دائمة . لكنها اليوم تبدو يتيمة باكية على ما فرط المسلمون في حقها فضيعوها .

لكننا - رغم ذلك - لا نَعُدُّم أن نلمس عليها اليوم أمارات العز القديم ومسحة الدلال الغابر .



سفارة أندلسية في بلاط الدانمارك *

تاريخنا الإسلامي في الأندلس لا يزال في كثير من جوانبه بكرراً أو مجهولاً ، بحاجة الى بحث وكشف ، والدبلوماسية الإسلامية في تلك البقعة أحد هذه الجوانب. وأرى أنها من أمتع الموضوعات للدارس ، وإن كانت في عين الوقت من أشقها على على البحث وذلك لقلة ما وصلتنا عنها من النصوص التاريخية . ولا أشك في أنه ضاعت نصوص كثيرة قيّمة مما تتعلق بها ، أمثال كتب ابن حيّان القرطبي وأحمد بن محمد الرازي وغيرهما . والظاهر أن ما وصلنا هو القليل الذي أفلتت ناجياً من مخالب الضياع بعوامله المختلفة .

ولدينا سفارة أندلسية تعتبر من أطرف ما عرفته الدبلوماسية

* نُشر في العدد : ٨٠ من « الملحق الأسبوعي » لجريدة « الجمهورية » البغدادية ، الخميس ٦/٤/١٩٦٧ .

في تاريخها خلال العصور. ولم يرد خبر هذه السفارة إلا في مصدر واحد من التي بين أيدينا. وهو مصدر متأخر عن تاريخ حدوثها بحوالي أربعة قرون .

وهذا سبب مهم في إنكار بعض الباحثين لأصالة هذه السفارة ؛ فلماذا لم توردها كتب المتقدمين ، والمعاصرين لها على وجه الخصوص؟ ولا أرى في هذا أي حجة فاصلة ، إذ انه لدينا أحداث أخرى لم ترد إلا في كتب المتأخرين ولم يروها غير مصدر واحد ورغم ذلك فما وجدنا من يقول بنكرانها .

ومصدرنا الوحيد لهذه السفارة هو كتاب « المَطْرِب من أشعار أهل المغرب » تأليف أبي الخطاب عمر بن الحسن بن دحية الكلبي الأندلسي ، المولود في بَلَنَسِيَّة Valencia (على ساحل الأندلس الشرقي) المتوفى في القاهرة سنة ٦٣٣ هـ / ١٢٣٥ م .

هاجم النورمان أو الفايكنج سكان البلاد الاسكندنافية— لأول مرة سواحل الأندلس الغربية في خريف ٨٢٩ هـ / ٨٤٤ م أيام عبد الرحمن الثاني (الأوسط) . والرواية الأندلسية تعرف النورمان هؤلاء باسم « المجوس أو الأرْدُمانيون » ولا تعني الرواية هنا بـ « المجوس » مجوس عبدة النار في فارس المعروفين بالزرادشت .

لقد ذكر هجوم النورمان هذا عدد من المؤرخين الأندلسيين

منهم ابن القوطية في تاريخ افتتاح الاندلس وابن عذاري في
البيان المغرب وابن حيان القرطبي في المقتضب وابن خلدون
في العبر^(١) كما روت المصادر الأوربية .

وينقسم سكان البلاد الاسكندنافية الى ثلاثة شعوب هم :
الدانماركيون والنرويجيون والسويديون ، واتجه كل منهم في
نشاطه الحربي أو التجاري وجهة معينة . فالسويديون الى شرقي
أوروبا والنرويجيون الى سواحل انجلترا الشرقية كما احتلوا جزيرة
ايرلندا . أما الدانماركيون فهاجموا فرنسا وإسبانيا الشمالية ثم
الاندلس ، وهم الذين احتلوا منطقة في شمال فرنسا والتي لا زالت
حتى اليوم تحمل اسمهم « نورماندي Normandy » . ويكاد
يكون من المؤكد تماماً ان الدانماركيين هم الذين هاجموا الاندلس
وانهم جاءوا من الدانمارك نفسها ، ولم يكن الهجوم من قبل
النرويجيين في إيرلندا أو من النرويج ، كما يقول البعض ، والأدلة
التي تقف ضد الرأي الثاني كثيرة . وما دام المهاجمون هم الدانماركيون
فتبعاً لذلك فإن السفارة النورمانية التي نحن بصددتها جاءت من

(١) العُدري ، نصوص عن الاندلس ، ص ٩٨ - ١٠٠ ؛ ابن عذاري ،
البيان المغرب ، ٨٧/٢ ؛ ابن دحية ، المطرب من أشعار أهل المغرب ،
ص ١٣٨ - ١٤٥ ؛ المقري ، نفع الطيب ، ٣٢٣/١ ؛ ابن حيان ،
المقتضب (بيروت ، ١٩٦٥) ، ص ٢٤٤ ، ٢٤٩ - ٢٥٢ ؛ عنان
دولة الاسلام في الاندلس ، ٢٨٠/١ - ٢ ؛ سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم
في الاندلس ، ص ٢٣٥ - ٧ .

الدانمارك Denmark لا من النرويجيين .

كان النورمان أمة بحر عريقة ماهرة في ما يتصل بالبحرية وفنونها . وإذا كان قد أشيد بالعرب في مهارتهم بكل ما يتعلق بالخیل وركوبها ، وَصَفَهُم الشاعر بقوله :

فكأنما وُلِدَتْ قِيَامًا تَحْتَهُمْ
وكانهم وُلِدُوا عَلَى صَهَوَاتِهَا

فإن هؤلاء النورمان في مهارتهم البحرية وكانهم وُلِدُوا وترعرعوا في سفنهم الطويلة ذات الأشرعة السوداء والمخاضيف الخفيفة . وكانت لهم قواربهم المدببة الجانبين السريعة الحركة ، ولذلك فحينما هاجموا الاندلس هجومهم المذكور أخذوها على غِرَّةٍ وأرعبوها بالقتل ، ثم يهربون بسرعة الى سفنهم . ولم يستطع الأندلسيون ردهم إلا بعد فترة وتضحيات . لكن الاندلس أنشأت بعد ذلك بَحْرِيَّةً قوية ردت بسهولة وبتفوق كل هجمات النورمان التالية .

استطاع أهل الأندلس طرد النورمان في هجومهم الأول ، وتكبيدهم الخسارة في الأرواح والسفن وعادوا الى وطنهم . وكان النورمان في هذه الفترة — أواسط القرن التاسع الميلادي — قد بدأوا يدخلون المسيحية التي تأمر بالسلام ولا ترضى الاعتداء ، كما دخل ملكهم هوريك Horic في هذا الدين ، وأمام هذا التبدل

والنتائج التي انتهت بها عمليات هجومهم على الاندلس قرروا إنشاء علاقات سلمية ومعاهدة صداقة مع سلطاتها . فوصلت سفارة دانماركية الى بلط 'قرطبة' في ربيع السنة التالية (٢٣٠هـ / ٨٤٥ م) واستقبلهم أمير الاندلس عبد الرحمن الأوسط أحسن استقبال ووافق على رغبتهم ، وأرسل سفارة جوابية ذهبت بالطريق البحري الى الدانمارك بصحبة تلك السفارة لإتمام إبرام هذه المعاهدة بين الطرفين . ولاستعين الآن بمقتطفات من ابن دحية وهو يحدثنا عن هذه السفارة التي صادفت أثناء مسيرتها البحرية الأخطار وعصفت بهم ريح شديدة وصفها الغزال بشعره وهو يخاطب صديقه واسمه يحيى كذلك :

قال لي يحيى وصرنا
 بين موج كالجبال
 وتولت لنا رياح
 من دبور وشمال
 شقت القلبعين وانبتت عُرى تلك الحبال
 وتمطى ملك الموت
 إلينا عن حبال
 فرأينا الموت رأي العين
 حالاً بعد حال

لم يكن للقوم فينا
يا رفيقي رأسُ مالٍ

ثم سلموا من تلك الأهوال...

وعند وصولهم الداغمارك أسرع الوفد النورماني بإبلاغ مملكتهم
نتائج سفارتهم الى الأندلس وعن وصول السفارة الأندلسية .
وفرح الملك شديد الفرح وأصدر أوامره بتكريمهم وأعد لهم
منزلاً حسناً واحتفل بهم . لقد اندهش هؤلاء المحوس من الأزياء
التي كان أعضاء السفارة الأندلسية يرتدونها لما فيها من جمال
وغربة . وبعد أيام استراحوا فيها ، بدأ إعداد المراسيم لمقابلتهم
للملك ، كان من جملة هذه المراسيم ان يركع (ينحني) السفير
ومن معه عند دخولهم مجلس ملك النورمان . واشترط الغزال
ألا يركع أحد منهم لأن هذا لا يجوز إلا لله تعالى ، واجيب إلى
ذلك . لكن النورمان احتالوا بطريقة يضطرون بها الغزال إلى
الركوع من غير أن يشعر . فوضع في بداية المجلس مدخلاً ضيق
منخفض لا يمكن للانسان الدخول منه إلا منحنياً . وسرعان
ما أدرك الغزال الحيلة بذلكاه ، فلما وصل الى المدخل جلس الى
الأرض وقدم رجليه ، مواجهاً بها صدر المجلس ، وزحف على
اليته حتى جازه ثم استوى واقفاً ، وكذلك فعل أصدقائه .

وكان الملك قد جلس لهم في أحسن هيئة واحتفل

بالزينة الكاملة والأبهة البالغة والجند المسلحة ، إظهاراً للقوة
والمسئعة .

فما هالت هذه المظاهر الغزّال ولا ذعرتة بل وقف أمام
الملك قائلاً : « السلام عليك أيها الملك وعلى من ضمّه مشهّدك ،
والتحية الكريمة لك ، ولا زِلْتُ تُمتنّع بالعز والبقاء والكرامة
المفضية بك الى شرف الدنيا والآخرة المتصلة بالدوام في جوار
الحي القيوم الذي كل شيء هبّالك إلا وجهه له الحكم وإليه
المرجع » . ولما فسّر المُترجمُ للملك هذا الكلام قال :
« هذا حكيم من حكماء القوم وداهية من دهايتهم . أردنا أن نذله
فقابل وجوهنا بنعليه ولولا انه رسول لأنكرنا ذلك عليه » .
وسلّم السفيرُ رسالةَ الأمير الأندلسي وقرئت عليه فاستحسنها
ثم رفعها ووضعها في حجره تقديرأ ، ثم قدّمت الهدايا التي
أعجب بها الملك وبمحتوياتها من الثياب والأواني الأندلسية ذات
الفن الرفيع . وقضى الوفد الاندلسي حوالى السنة في الدانمارك ،
في جتланд Jutland ، أكبر جزائرهم ، وربما في غيرها ؟ جرت له
خلالها أحداث .

وكان للغزال معهم مناظرات ومجالس مذكورة ناقش فيها
العلماء فأفحمهم كما نازل الفرسان وناضل الشجعان فغلبهم .
ولعله ألقى هناك بعض المحاضرات تناول فيها الحديث عن
الاسلام وتاريخه .

وكان الغزال وسيماً مهيباً احتفظ بوسامته حتى الكِبَر .
وقد عمّر الغزال أربعاً وتسعين سنة ، ويوم خطه الشيب كان
لا يزال قوياً محتفظاً باناقة ورشاقة وحسن صورته .

ويقول لنا المقرئ في نفح الطيب بأن سفيرنا يحيى
ابن حَكَمَ البَكري لُقُتَبَ بـ «الغزال» لجماله ، وإن الأمير
عبد الرحمن الأوسط هو الذي لقبه به حين دخل عليه الغزال
مرة ، فقال الأمير : « جاء الغزال بحسنه وجماله » (١) .

وكان الغزال فوق ذلك ذكياً عالي الذكاء ظريفاً جميل النكتة
عزيز النفس حسن التصرف لاذع التهكم حاضر الخاطر ، ولقد
لقب بـ « حكيم الأندلس » .

كان الغزال بهذه الصفات والقابليات فلا تندش إذا ما
أخبرنا ابن دحية عن قصة شيقة حدثت له خلال إقامته في
الدانمارك . فحينما وصلت أخبار الغزال ومواقفه أسمع « نُود »
زوجة هوريك ملك الدانمارك أعجبت به وَوَجَّهَتْ فيه لَتراه ،
ولدى دخوله عندها ، وبصحبة المترجم ، سلم عليها وأطال
الشُخُوص فيها متعجباً يجمهاها ، فقالت له : لماذا تطيل النظر ؟
أَلِفِطْرُط استحسن أم عكس ذلك ؟ فأجابها : إني لم أتوهم أن
في العالم منظرأ مثل هذا . فَطَرِبت الملكة لمديحه وزاد سرورها

(١) نفح الطيب ، ٢٣/٣ ؛ ابن عذاري ، البيان المغرب ، ٩٣/٢ .

حينما عرض عليها أن يقول فيها شعراً . والظاهر ان الغزال
 أعجب بالملكة الفاتنة الجمال . كما ان الملكة نفسها بادلتة الاعجاب ،
 حتى ان كلفها به بلغ حداً لم تعد تصبر عنه يوماً حتى تستدعيه
 إلى مجلسها . وكان يحادثها بسير الاسلام وأخبار المسلمين
 وبلادهم وبمن جاورهم من الأمم ، وكان الترجمان ينقل الحديث
 من وإلى كل منهما .

وسأله يوماً عن عمره فقال مداعباً : عشرون سنة ! فقالت
 له : وكيف وهذا الشيب في رأسك ؟ فأجابها : ألم ترني قط
 مهراً يولد أشهباً ؟ فضحكت « نود » وأعجبت بقوله .

وكان مما قاله الغزال من الشعر في الملكة :

كَلِفْتُ يَا قَلْبِي هَوًى مُتَعَبَا
 غَالَبَتْ مِنْهُ الضَّيْعُ الْأَغْلَا
 إِنِّي تَعَلَّقْتُ بِمَجُوسِيَّةٍ
 تَأْبَى لَشَمْسِ الْحَسَنِ أَنْ تَغْرِبَا
 أَقْصَى بِلَادِ اللَّهِ بِي حَيْثُ لَا
 يَلْقَى إِلَيْهِ ذَاهِبٌ مَذْهَبَا
 يَا نُودُ يَا رَوْضَ الشَّبَابِ الَّتِي
 تَطْلُعُ مِنْ أَرْزَارِهَا الْكُوكَبَا

وبعد انتهاء السفارة الاندلسية بنجاح وعقد معاهدة السلام

عاد الوفد إلى الأندلس بالطريق البرمائي هذه المرة . جاءت
 بجرأ حتى ساحل الشمال الاسباني الى مدينة سَنتَ يعقوب
 (سنتياكو دي كومبوستيلا Santiago de Compostela)
 مزوداً برسالة من ملك الدانمارك الى راميرو الأول Ramiro I
 ملك ليون الاسباني (المتوفى ٢٣٦ هـ / ٨٥٠ م) يوصيه بالسفارة
 الاندلسية خيراً . وبقي الغزال وصحبه هناك عند راميرو مدة
 ثم تابع رحلته عن طريق قشتالة Castele الى طليطلة
 Toledo ليصل قرطبة Cordoba ويلحق بحضرة الأمير ، بعد
 مرور عشرين شهراً على رحلته الخطيرة الشاقة .

وهكذا كانت هذه السفارة الأندلسية أحد أوجه النشاط
 الدبلوماسي في تاريخ الغرب الاسلامي الذي نجعل عنه الكثير .
 هذا النشاط الذي يعبر بوضوح امين عن مدى مستوى التمدن
 الرفيع الذي بلغته حضارتنا في الربوع الأندلسية الجميلة .



المصاهرات بين الأندلس وإسبانيا الشمالية في الفترة الأموية *

يُجد الباحث علاقات كثيرة ومتنوعة بين الأندلس وإسبانيا المسيحية في الشمال من شبه الجزيرة الأيبيرية (إسبانيا والبرتغال) ، خاصة في الفترة الأموية . وكان ذلك أمراً طبيعياً ، نظراً للجوار والاحتكاك في كل المجالات ؛ ويظهر بصورة أوضح في هذه الفترة . فكما قامت بين الطرفين علاقات دبلوماسية وتبادل سفارات الى جانب العلاقات الثقافية والأخرى العسكرية ، للتعاون ضد العدو المشترك ، كذلك قامت علاقات التزاوج

* نُشر هذا البحث في مجلة (الأقلام) التي تصدرها وزارة الثقافة والإرشاد العراقية (بغداد) ، الجزء السادس ، السنة الثالثة ، ذو القعدة ١٣٨٦ هـ / شباط ١٩٦٧ م . وقد نُشر بالانجليزية :

« Intermarriage between Andalusia and Northern Spain in the Umayyad period » , *The Islamic Quarterly*, London, Vol. XI, Nos . 1 & 2, 1967 .

والمصاهرة ، وكان القليل من هذه المصاهرات ذات أهداف سياسية .

وكما كانت هذه المصاهرات مألوفة على مستوى الحكام كانت كذلك بين أفراد الشعب في الأندلس ، مسيحيين ومسلمين . ولا يقصد بألفة هذه المصاهرات انحصارها داخل الحدود الأندلسية فقط بل - وعلى الأكثر - بين المسلمين في الأندلس والمسيحيين في دول الشمال الاسباني: ليون (Leon) وقشتالة (Castile) ونافار (Navarre) أو بلاد البَشْكُونِس (Bascques) . ولعل هذا - بنفسه - دليلٌ على سياسة التسامح التي اتبعتها المسلمون منذ الأيام الأولى لفتح إسبانيا ونتيجة لتلك السياسة . والأمثلة على هذه المصاهرات أكثر من أن تُسرَدَ في مثل هذا البحث القصير .

ومن أوائل الأمثلة التي ترد الى الذهن زواجُ والي الأندلس عبد العزيز بن موسى بن نُصَيْرِ المقتول سنة ٩٧هـ / ٧١٦م^(١) ،

(١) تعدد القول في سبب قتله . وعن مناقشة هذه المسألة راجع : محمد عبد الله عنان ، دولة الاسلام في الأندلس ، القاهرة ، ١٩٦٠ / ٧٠ - ٧٢ ؛ حسين مؤنس ، فجر الاندلس ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ١٢٩ - ١٣٣ ؛ السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، بيروت ، ١٩٦٢ ، ١١٣ - ١١٥ . وروى بعض المؤرخين أن زوجته ، أم عاصم ، أقتعته أن يتخذ سمة الملك ويلبس التاج ففعل ، فكان ذلك سبب قتله . انظر : ابن عذاري ، البيان المغرب ، تحقيق كولان وليفى بروفنسال ، ليدن ، ١٩٥١ / ٢٣ - ٢٤ ؛ المقري ، نفح الطيب ، =

فهو لم يكتف بتشجيع التزاوج بين المسيحيين والمسلمين بل تزوّجَ هو نفسه من أَيْلَةُ (Egilona) ^(١) أو أم عاصم ، أرملة رُذْرِيْق (Rodrigo) ، آخر ملوك القُوط في إسبانيا.

وتروي لنا المصادر قصة زواج مُنُوَسَة (Munuza) من ابنة أود (Eudes) دوق أكيْتانيا (Aquitaine) ، جنوب فرنسا. كان مُنُوَسَة حاكماً لحدى مناطق الأندلس الشمالية ^(٢) ، أيام الوالي عبد الرحمن الغافقي . وكان مُنُوَسَة على علاقات طيبة مع دوق أكيْتانيا ، حتى عُقِدَ بينهما تحالف سري . وتأكيداً

- طبعة محمد محي الدين عبدالمجيد ، القاهرة، ١٩٤٩، ٢٦٣/١ ؛ ابن القُوطيّة، تاريخ افتتاح الأندلس ، طبعة عبدالله أنيس الطباع ، بيروت ، ١٩٥٧ ، ص ٣٧ . ويملك الباحث الشك في هذه الرواية جملة وتفصيلاً . قارن : ابن الأثير ، الحُلَّة السَّيْرَاء ، تحقيق حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ٣٣٤/٢ ؛ عمر فروخ ، العرب والاسلام في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط ، بيروت ، ١٩٥٩ ، ص ١٠٤ .

(١) ابن عذاري، البيان ، ٢/٢٣ ؛ المَقَرِّي نفح، الطيب، ١/٢٦٣ ؛ مؤنس ، فجر الأندلس ، ١٣٠ - ٣ ؛ سالم ، تاريخ المسلمين ، ١١٣ ؛ رينو، تاريخ غزوات العرب ، ترجمة شكيب ارسلان ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ص ٥٩ ، ١١٦ .

É. Lévi-Provençal , *Histoire de L'Espagne Musulmane*, Paris, 1950, vol. I, p. 33 ; S. M. Imamuddin, *A Political History of Muslim Spain*, Pakistan (Dacca), 1961, p. 20. (٢) عنان ، دولة الاسلام ، ١/٨٥ ؛ سالم ، تاريخ المسلمين ، ص ١٤١ ؛

رينو ، نفس المصدر ، ص ١١٦ .

لهذا التحالف تزوج مُنوسة من المسيحية (Lampégie) ابنة الدوق المعروفة بجهاها (١) .

ولقد تزوج عدد غير قليل من حكام الأندلس بنساء مسيحيات من إسبانيا الشمالية (المسيحية) ذاتها . فالحكم الثاني ، المستنصر بالله ، المتوفى ٣٦٦هـ / ٩٧٦ م ، تزوج بامرأة بشكنسية (أي من بلاد نافار في الشمال الإسباني ، التي كانت عاصمتها بنبلونة pamplona) وكان اسم زوجة الحكم هذه : « صُبح » (٢) ، وهو الترجمة العربية لأصل اسمها الإسباني (Aurora) أي الفجر . وهي أم هشام المؤيد بن الحكم المستنصر ووريثه . وكان الحكم يُؤثرها وهي حظيئة عنده كما يقول ابن عذارى في بيانته (٣) . وهي التي ساعدت المنصور

(١) وحين سار عبد الرحمن الغافقي الى جنوب فرنسا لبعض العمليات الحربية تملكاً مُنوسة في السير معه ، بل وأخير حميته الدوق بذلك ، مما أثار غضب الغافقي ، فأرسل فرقة للقبض على منوسة الذي فرّ مع زوجته إلى إحدى الغابات . وانتهى الأمر بقتل مُنوسة وأسر زوجته . راجع الحاشية رقم (٢) في الصفحة السابقة ، مؤنس ، فجر الاندلس ، ص ٢٥٠-٣ .

(٢) ابن عذارى ، البيان ، ٢ / ٢٥٣ ؛ ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، تحقيق ليفي بروفنسال ، بيروت ، ١٩٥٦ ، ص ٤٢ ، عذان ، تراجم إسلامية شرقية وأندلسية ، القاهرة ، ١٩٤٧ ، ١٧٢-٣ ودولة الاسلام ، ٢ / ٤٦٩ ، ٤٥٤ .

(٣) البيان ، ٢ / ٢٥٣ ، ٢٣٥ .

(محمد بن أبي عامر) على تمكُّنه من السلطة في الاندلس (١) .

ولقد تزوج المنصور بن أبي عامر من تريسا (Teresa) ابنة
برمودو الثاني (Bermudo II) ملك ليون (٢) .

ويروي ابن الخطيب في أعمال الأعلام (٣) خبر زواج
آخر للمنصور من ابنة شانجيه الثاني بن غرسية
(Sancho Garcés II) ملك نافار. وتُطلق المصادر الأندلسية
عليها اسم « عبدة » (٤) ، ويضيف ابن الخطيب أنها : « حَسُنَ

(١) ابن عذاري ، البيان ، ٢٢٥/٢ ؛ ابن سعيد المغربي ، المغُرب
في حُلَى المغُرب ، تحقيق شوقي ضيف ، القاهرة ، ١٩٥٣ ، ١٩٤/١ ؛
عنان ، دولة الاسلام ، ٤٧١/٢ ، وما بعدها ؛ سالم ، تاريخ المسلمين ،
ص ٣٢٦ .

(٢) ابن خلدون ، العبر ، بيروت ، ١٩٥٨ ، ٣٨٩/٤ ؛ عنان ،
دولة الاسلام ، ٥٣٠/٢ .

Lévi-Provençal, ibid., vol. II, p. 241 .

(٣) ص ٦٦ ، ٧٣ .

(٤) هذا هو اسمها العربي . راجع : ابن عذاري ، البيان المغُرب ،
تحقيق ليفي بروفنسال ، باريس ، ١٩٣٠ ، ٣٨/٣ ؛ ابن الأثير ، الحُلَّة ،
٢٧٢/١ حاشية ١ ؛ عنان ، دولة الاسلام ، ٥٧٠/٢ ؛ سالم تاريخ المسلمين ،
ص ٣٤٣ .

Lévi-Provençal, ibid.; F. J. P. De Urbel, *Historia de Espana*, vol. VI, *Espana Cristiana*, Madrid , 1956 .
p. 315 .

ولم أهتم الى معرفة أصل اسمها الاسباني .

إسلامها ؛ وكانت من خَيْرَات نساائه ، دينا ممتينا وحسبا أصيلا . فأنجبت من المنصور عبد الرحمن الذي تولى حكم الاندلس بعد أخيه عبد الملك المظفر بن المنصور .

وكان عبد الرحمن هذا يسمى - تذكليلا - « شَنْجُول » ، مُصَغَّرَ لاسم جده شَانْجُه . وقد حضر شَانْجُه الثاني لزيارة حميَّته المنصور في قُرْطُبَة سنة ٥٣٨٢ / ٩٩٢ م ، فاستقبله المنصور أعظم استقبال ^(١) . وكان هذا الإستقبال يوما مشهودا حشد له المنصور « الجيوشَ والمُطَوَّعةَ لِتَلْقَائِهِ فِي دُخُولِهِ إِلَى قِصْرِ الزَاهِرَةِ ؛ فَكَانَ يَوْمُهُ أَحَدَ أَيَّامِ الدُّنْيَا الشَّهِيرَةِ ^(٢) » . وأخرج المنصور في الموكب ابنه عبد الرحمن (حفيد شَانْجُه) ، وكان لا يزال « طِفْلا يَرْقُدُ فِي السَّرَج » فنزل جدُّه إليه وقبَّل رِجْلَهُ وَيَدَهُ ^(٣) . وقَدِمَ موكب الملك النافاري الى مجلس المنصور ، حيث كان يجلس على سرير الخلافة الذي اغتصبه ^(٤) ،

(١) ابن الأثير ، الحُلَّة ، ٢٧٢ / ١ ؛ عِنان ، دولة الاسلام ، ٥٧٠ / ٢ ؛ وكذلك ؛

Lévi-Provençal, *ibid.*, And *La Civilisation arabe en Espagne*, Paris , 1961, p. 110 .

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٧٣ .

(٣) ابن الخطيب ، نفس المصدر ، ص ٦٦ .

(٤) كان المنصور قد اغتصب الخلافة واتخذ صفة المُلِك الذي توارثه أبناؤه من بعده . وقد استعمل لذلك كل الوسائل من الغدر والقتل كما اتبع =

يحيط به رجال الدولة ، ثم انفض المجلس واستمرت المفاوضة وعاد الملك شانجُه الى بلاده .

ومن حكام الشمال الإسباني الذين شجعوا هذا الاتجاه - المصاهرات - مورقات (مورجاتو Mauregato) المتوفي سنة ١٧٣ هـ / ٧٨٩ م ، الذي استقل في جَلِيَّةِيَّة (Galicia) متخذاً من برافيا (pravia) عاصمة له . لقد شجع مورجاتو بحماس زواج الفتيات المسيحيات من المسلمين ^(١) ، ولكن دعوته لم تلاق النجاح المطلوب .

وكانت علاقات المصاهرة قوية بين بني قسي المولدين ، حكام الثغر الأعلى في الأندلس ، وبين حكام نافار في الشمال . فإن أرملة موسى بن كُفَرْتُون بن قسي تزوجت من وَنْقَه أريستا (Inigo Aritsa) ، الأمير النافاري ؛ كما أن موسى هذا تزوج بنات أخيه لب لأولاد وَنْقَه بن شانجُه

= سياسة قضت على وحدة الأندلس ، فهو حريٌّ أن يُلقب بـ « مُحَطَّم الأندلس » وواضع بذور فقدانه . قارن : ابن خلدون ، العبر ، ٣١٨/٤ - ٣٢٠ ؛ عنان ، دولة الاسلام ، ٥٠٠/٢ ، ٥٣١ ، ٥٣٤ . وكذلك :

Lévi-Provençal, *ibid.*, vol. II, pp. 293-4.

(١) عنان ، دولة الاسلام ، ٢١٦/١ . كذلك :

Lévi-Proveçal, *Hist. Esp. Mus.*, I. 117 .

ويروي ابن حزم الأندلسي (القرطبي) في جَهْرَتِه (٢) طَرَفًا من هذه المصاهرات التي قامت بين بني قَسِي وبني بيت وَنَقَه ، الأسرة النافارية الحاكمة . وكانت هذه العلاقات من القوة بحيث كان بنو قَسِي يقفون أحيانًا مع أصهارهم النافاريين في حربهم ضد المسلمين أو ضد الحكام المسيحيين الآخرين على السواء (٣) . وقد حارب موسى بن موسى بن فَرَنْتُون بن قَسِي (أو القَسَوِي) الى جانب أخيه فَرَنْتُون بن وَنَقَه (Fortun Iniguez) ضد أردونيو الأول (Ordonio I) ملك ليون في معركة البلكنة في سنة ٨٢٤ / ٨٦٢ م ، حيث قُتِلَ الحليفان (٤) .

ولعل أطرف نموذج وأقوى مَثَل على هذه المصاهرات ما

(١) انظر بحثي «العلاقات السياسية بين ثوار الأندلس وإسبانيا المسيحية في الفترة الأموية» ، مجلة (الأبحاث) ، تصدرها الجامعة الأميركية ببيروت ، عدد آذار ١٩٦٥ (السنة ١٨ - الجزء ١) ، ص ٤٧-٤٩ .

(٢) جهرة أنساب العرب ، تحقيق ليفي بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، ص ٤٦٧ .

(٣) العُدْزِي (أحمد بن أنس) ، نصوص عن الأندلس ، تحقيق عبد العزيز الأهواني ، مدريد ، ١٩٦٥ ، ص ٣٠-٣١ ؛ عنان ، دولة الاسلام ، ٣٦٠ / ٢ ، ٢٩٤ / ١ .

Lévi-Provençal, ibid., II, 2. (٤)

ذُكِرَ من أن الخليفة الاندلسي عبد الرحمن الناصر المتوفى سنة ٩٣٥٠ / ٩٦١ م كان حفيد سيدة نافارية . وكان هو نفسه ابن جارية اسبانية مسيحية ، تُسمّى الرواية الاندلسية «مزنّة» (١) ، ولعل اسمها في الاصل «ماريا» . وأطرف ما في الامر أن طوطة (Toda) ، الملكة الوصية على عرش نافار (وكانت الحاكمة الفعلية لذلك البلد) ، المتوفاة سنة ٩٤٩ / ٩٦٠ م ، كانت عمة الخليفة عبد الرحمن الناصر من جهة الأمومة . ولعله من الغريب أننا لا نجد في المصادر الإسلامية أي ذكر لقصة القرابة اللطيفة بين الخليفة الأندلسي والملكة النافارية . وكل الذي تذكره هذه المصادر عن الموضوع أشبه بعنوان القصة دون القصة ذاتها . فتقول لنا هذه المصادر إن جدة الخليفة الناصر لأبيه محمد تسمى «دُرّ» (٢) .

لكننا نجد القصة كاملة - تقريباً - في أحد المصادر اللاتينية (٣) . وذلك أن «دُرّ» واسمها الإسباني ونّقا (Iniga) هي ابنة فرّنّون بن غرّسيّة (Fortun Garcés) (حفيد ونّقه أريستا (Inigo Arista) الملقب بـ «الأنقر» ، الذي

(١) ابن عذاري ، البيان ، ١٥٦/٢ .

(٢) ابن عذاري ، البيان ، ١٥١/٢ .

Oliver y Hurtado (Manuel), *Discursos* , No. 2, (٣)
Real Academia de la Historia, Madrid, 1866, vol. III,
p. 107 ; Lévi-Provençal, *La Civilisation*, pp. 109-10 .

— كما يروي ابن عذاري ^(١) — اعتقله الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط في قرطبة لمدة عشرين سنة . وأن ابنة الأنقر هذه تزوجت ، زواجها الأول ، من أمير نافاري هو أزنار بن شانجه (Aznar Sonchez) فأنجبت ونقا (Iniga) من هذا الأمير النافاري طوطة (Toda) ملكة نافار . ثم كان الزواج الثاني لدونقا من الأمير عبدالله ، جد الخليفة عبد الرحمن الناصر ، فأنجبت ونقا للأمير عبدالله محمداً أبا عبد الرحمن الناصر . فيكون محمد (أبو الناصر) أخاً لطوطة ، ملكة نافار من الأم ، وتكون طوطة عمة عبد الرحمن الناصر بن محمد عن طريق الأمومة .

والملكة 'طوطة هي التي وفدت على الناصر ٩٥٨/٨٣٤٧ م ، مع ابنها أغرسيه بن شانجه الأول (Garcia Sanchez I) وحفيدها شانجه الأول (Sancho I) الملقب بالسمين ، ملك ليون الخلع ^(٢) ، ساعية في عقد معاهدة سلم وصداقة مع قرطبة ومناشدة الناصر الإعراف بابنها ملكاً ، تحت وصايتها ، وراجية منه مساعدة حفيدها في استرداد عرشه ^(٣) ومعالجته من سمته المفترطة ، التي كانت أحد أسباب عزله . وقد بلغت

(١) ابن عذاري ، البيان ٩٧/٢ .

(٢) فيكون هذان الملكان من أقارب الخليفة الناصر أيضاً .

(٣) ابن خلدون ، العبر ، ٣١٠/٤ .

سمّنته حدّاً منعه من ركوب الخيل ومن المشي دون مساعدة^(١) .

فاستقبل الناصر عمته الملكة طوّطة والوفد المرافق لها^(٢) بحفاوة وأُبّته بالفتن في قاعة استقبال السفراء في قصر الخلافة بمدينة الزهراء ، واستجاب لطلباتها^(٣) .

وكان الذي أشرف على علاج حفيدها طبيب الناصر الخاص ، حسداي بن شبروط اليهودي^(٤) . ثم رَدّها الخليفة الى بلدها بكرامة وحفاوة .

وهكذا نرى الى أي حد كانت المصاهرة مألوفة على كل المستويات بين الاندلس واسبانيا الشمالية (المسيحية) . ولربما أسهمت - هذه المصاهرات - الى حد ما في توطيد علاقات الجوار بين الأندلس وحكام الشمال الاسباني في شبه الجزيرة الإيبيرية .

(١) استافلي لين بول ، العرب في اسبانيا ، ترجمة علي الجارم ، القاهرة ،

١٩٦٠ ، ص ١١١ ؛

R. Dozy, *Spanish Islam* , Eng. tr. F. G. Stokes, London, 1913, p. 440 .

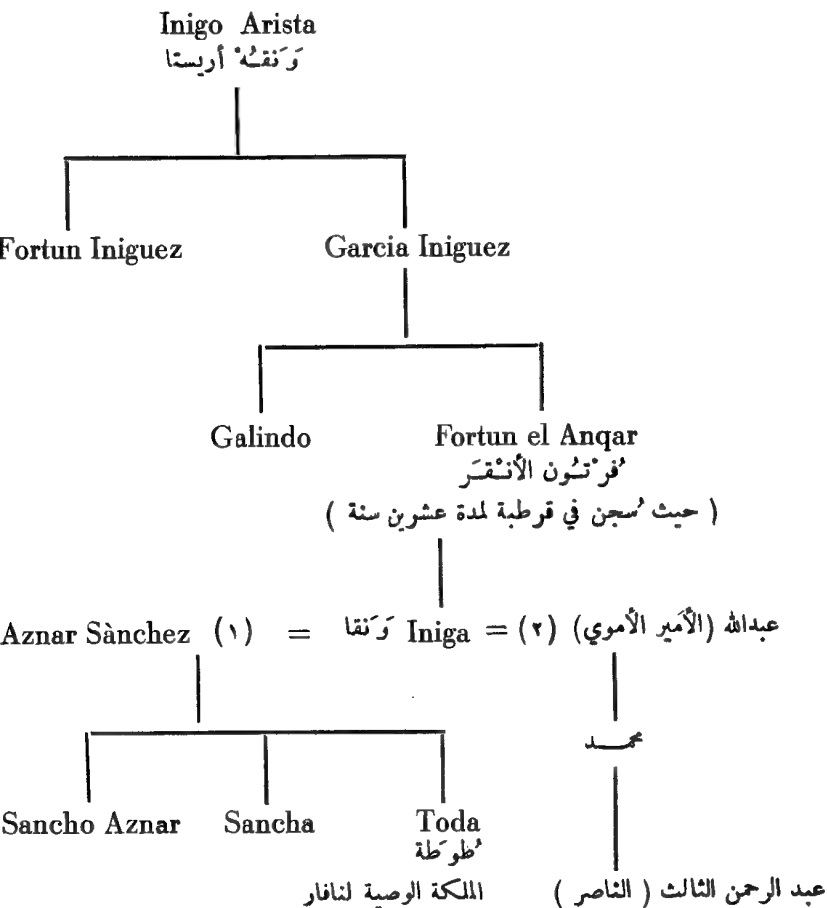
(٢) المَقَرِّي، نفع الطيب، ٣٤٢/١ ؛ عنان ، دولة الاسلام، ٤١٧/٢ ؛

Dozy, *ibid.*, p. 443; Lévi-Proveuçal, *Hist. Esp. Mus.*, vol. II, pp. 71, 144 .

(٣) عنان ، دولة الاسلام ، ٤٤٠/٢ .

(٤) Dozy, *ibid.*, p. 442 .

علاقات المُصاهرة بين حكام الأندلس ونافار



تاريخ إسبانيا الإسلامية *

تأليف : و. مونتكمري واط . مطبعة جامعة أدنبرة
(بريطانيا) ، ١٩٦٥ ، عدد الصفحات ١٠ + ٢١٠ ، الثمن
٢٥ شلن (والكتاب باللغة الانجليزية) .

W . Montgomery Watt, *A History of Islamic Spain*
(Islamic Surveys No. 4), E.U.P. 1965, X + 210 pp. 25s.

هذا الكتاب الذي يُقدِّم لك الآن - أيها القارئ الكريم -
كان قد صدر ضمن سلسلة « دراسات إسلامية (عامة) » ، والتي
وُضعت لتُقدِّم للقارئ المثقف شيئاً أكثر مما يُوفِّره له كتاب
عادي . بالإضافة إلى أن المؤلف قد ألحق الكتاب بملاحظات
حول المصادر التي « تكون بمثابة مرشد لأولئك الذين يرغبون

* نشر هذا النقد باللغة الانجليزية في مجلة :

The Islamic Quarterly , London , 1966 , Vol. X, Nos .
3 & 4 .

وبالعربية في مجلة (الأعلام) ، الجزء السابع ، السنة الثالثة ، آذار ١٩٦٧ .

متابعة دراساتهم ، في هذا الحقل .

والكتاب يحتوي على مقدمة وأحد عشر فصلاً ذات أقسام . وهو مزود بقائمة المصادر التي رجع إليها المؤلف وكشاف عام Index ، كما أن الدكتور Cachia قد كتب قسماً إضافياً عن الأدب . والكتاب مزود بـ ١٧ صورة إيضاحية وخريطتين .

ويوضح البروفسور واط في المقدمة خطته بأنه يدرس اسبانيا الاسلامية (الأندلس) لوحدها وكذلك مرتبطة ببقية العالم الاسلامي ومع علاقتها وإسهامها في حضارة أوروبا . فالفصول ١-٤ ، ٦ ، ٨ ، و ١٠ 'مكسّسة - أصلاً - لتاريخ اسبانيا الاسلامية السياسي ، من بداية الفتح الاسلامي لشبه الجزيرة الإيبيرية : (اسبانيا والبرقغال) في سنة ٩٢ هـ / ٧١١ م ، حتى سقوط غرناطة في ١٤٩٢/٨٩٧ . وفي هذه القرون الثمانية كانت الأندلس (اسبانيا الاسلامية) قد جربت أحوالاً مختلفة وكانت لها علاقات متنوعة مع عدد من الدول ، علاقات ثقافية وعسكرية ودبلوماسية بالإضافة الى المصاهرات خاصة مع دول اسبانيا المسيحية في شمال شبه الجزيرة الإيبيرية . ويمكن تقسيم التاريخ الأندلسي إلى عدة عصور :

١ - عصر الولاة : ويبدأ من الفتح الاسلامي للأندلس في

سنة ٨٩٢ / ٧١١ م حتى ١٣٨ / ٧٥٥ . وحَكَمَ الأندلس في هذه الفترة حوالي عشرين والياً كانوا خاضعين للخلافة الأموية في دمشق (الفصلان : الاول والثاني) .

٢ - عصر الإمارة: ويبدأ بمجيء عبدالرحمن الاول (الداخل) في ١٣٨ / ٧٥٥ حتى إعلان عبدالرحمن الثالث (الناصر لدين الله) الخلافة الاندلسية في ٣١٦ / ٩٢٩ ، حيث حكم سبعة أمراء (الفصل الثالث) .

٣ - عصر الخلافة : ويمتد حتى موت الحكم الثاني (المستنصر بالله) في ٣٦٦ / ٩٧٦ ، أو - على رأي البعض - حتى نهاية الدولة العامرية ، أي آخر القرن الرابع الهجري / بداية القرن الحادي عشر الميلادي (الفصلان : الرابع والخامس) .

٤ - يتلو ذلك عصر من الفوضى أدت الى « عصر ملوك (أو دول) الطوائف » . وهذا انتهى بقيام دولة المرابطين في الأندلس في ٤٨٤ / ١٠٩٢ التي حلت مكانها دولة الموحدين ، في حوالي ٦٢٠ / ١٢٢٣ . اتبع ذلك عصر آخر من الفوضى (الفصول: السادس والسابع والثامن) .

٥ - مملكة غرناطة (دولة بني الأحمر) التي أسسها محمد بن الأحمر (ابن يوسف بن نصر) في ٦٣٠ / ١٢٣٣ واستمرت حتى ٨٩٧ / ١٤٩٢ ، التي يمثل سقوطها نهاية الحكم الاسلامي في شبه الجزيرة الايبيرية (الفصل العاشر) .

وفي الفصلين الخامس والتاسع يدور الحديث حول الانجازات الثقافية والحياة الفكرية (الدين والعلوم والشعر والآداب الرفيعة والفن والفلسفة وعلم التاريخ والتصوف) . ويتحدث الفصل الحادي عشر عن « أهمية اسبانيا الاسلامية » ، وهو تقويم للتراث الاندلسي وأثره وتأثره .

وفي كل فصل توجد مقدمة فيها نظرة عامة على العصر السابق وملاحه التي أنتجت عصرأ جديداً ثم حوادث هذا العصر وتحليل نقاط معينة فيه ، وإلقاء بعض الأضواء عليها والكلام عن أسبابها ، متأثرة باتجاهات معينة للمؤلف وتخدم أغراضاً خاصة لديه ، الطبقات الاجتماعية والدين والحياة الاقتصادية والمظاهر الأخرى . وقد جُمِعت الحواشي وبعض التعليقات في آخر الكتاب مع مراجع لمن يريد دراسة أوسع .

. . .

وهنا لا بد من توجيه ثلاثة أسئلة :

- ١ - هل حقق الكتاب الغرض الذي وُضع من أجله ؟
- ٢ - هل يُعطي الكتاب صورة متكاملة للتاريخ الاندلسي ؟
- ٣ - هل أيد المؤلف استنتاجه بالنقاش والحجة القائمين على البحث العلمي ؟

حقى لو اعتبرنا المؤلف كتاباً للمعلومات العامة « وهو غير

قائم عموماً على أساس من موازين البحث الدقيقة)فهو ليس كافياً دائماً للقاريء المثقف او الطالب المتتبع لهذا الحقل . كما أن المفروض عموماً أنه كتاب تاريخ (تاريخ سيامي) فالتاريخ هو أقل ما يتحدث عنه المؤلف في مناقشاته التي غالباً ما تنقصها الدقة والواقعية التاريخية ، بالإضافة الى الاشارات المتكررة للتاريخ الاسلامي المبكر (مثلاً : الاحداث في الشرق الاسلامي) والتحليلات المفصلة محاولاً إسناد فكرة معينة أو رأي يعتقد . وإن مثل هذه الطريقة 'توجد' ، بين الحين والحين ، فجوات ، بين الفكرة والتي تليها . لا يسهل ملؤها ؛ كما انها 'توجد' الإرتباك بسبب ضياع وحدة الفكرة - أحياناً - لأن المناقشات تتقطع بالاشارات الى بعض النواحي أو الاحداث المبكرة في التاريخ الاسلامي . وللمؤلف أحكام تعسفية ، كالحديث عن الجهاد ، على حساب معالجة القضايا ، ذات العلاقة بالتاريخ الاندلسي ، التي كان المؤمل مناقشتها ، مثل ظروف عبور الجيش الاسلامي الفاتح للأندلس .

وحين يتحدث المؤلف عن حضارة الاسلام في شبه الجزيرة الايبيرية يهمل جوانب عدة منها : الجغرافية والرقى الملاحي (البحري) والعلوم البحتة والسياسة الخارجية والعلاقات الدبلوماسية مع الاقطار المتعددة ، كما انه لم يعط صورة متكاملة لأحداث تاريخية وأثرها على الأندلس كالهجومات المتكررة للنورمان (Vikings أو الأرْدُومانيون أو المجوس) على الاندلس

في الفترة الأموية .

فالكتاب إذن يُعطي صورة عامة بسيطة (موجزة) .
فبينما يزودنا المؤلف بتحليلات لبعض القضايا ، وفي حدود ،
وفي ضوء الاحداث ، على حين يظهر بجانباً للصواب في استنتاجاته
ويبني أحكامه على تحليلات ذات طابع شخصي (غير علمي) ،
الى حد ما ، تتفق مع فهمه الخاص للحقائق . وهذا الاسلوب ،
إذا فات غير المهتم بالتاريخ الاندلسي كشفه ، فلا يفوت المتتبع
لحلل الدراسات الاندلسية . ولعل هذا الاتجاه لدى المؤلف
ناتج عن حقيقة هامة هي أن الاستاذ واط يكتب في غير حقه ،
ودون تمكن أو هضم للمادة ، على ما يظهر ، معتمداً إلى حد
كبير على مصادر أوروبية ثانوية ، لا تكفي وحدها لهذا العمل ولا
لادراك كيفية إسهام الماضي في صياغة الحاضر . فنجد المؤلف
يمر مروراً عابراً على أحداث حاسمة ، حين يجد الحديث المفصل
لا يخدم واحداً من أغراضه ، مثل غزو شارلمان للأندلس في سنة
١٦١ / ٧٧٨ (ص ٣٤) وعبر طارق بن زياد (ص ١٣ - ١٤)
ومسألة خطبة طارق وحرقة للسفن .

ولقد أكد المؤلف على ضعف اسبانيا وفساد أحوالها قبل
الفتح الإسلامي ليحاول بذلك بيان أن أي جيش كان باستطاعته
القيام بهذا الفتح كما أسند عملية الفتح الاسلامي الى محفزات
صوّرها فهمه غير الواقعي ، وهو وإن سماها « جهاداً » ولكن
كما يفهمه هو ، فهما يخالف كل النصوص والوصايا والاحداث

التاريخية المتوافرة المتواترة عن الجهاد . فصورة « الجهاد » لدى الاستاذ واط صورة اخرى - غير اسلامية - تنسجم مع مفاهيمه الخاصة الغربية غير الواقعية . فصورة الجهاد عنده هي : الغنائم وقليل عدد السكان بالقتل - أثناء العمليات الحربية - كعلاج لقلة الغذاء ، وربما أسباب أخرى !

لا بد أن نتذكر دوماً أن الجيش الاسلامي الذي فتح اسبانيا بقيادة طارق كان اثني عشر ألفاً بينما كان جيش القوط بقيادة لذريرق (Roderick=Rodrigo) أربعين ألفاً حسب قول ابن خلدون الذي يُعتبر من أكثر الروايات المحافظة « العبر ، بيروت ، ١٩٥٨ ، ٤ / ٢٥٤) ، بينما أوصلت روايات أخرى تعداد جيش القوط الى مئة ألف . إن ضعف اسبانيا كان حقيقة ولكن لولا الروح المعنوية التي كان يتمتع بها الجيش الاسلامي والمستمدة من معاني « الجهاد » وبالمفهوم الاسلامي النقي ، خدمةً للفكرة ، لما حقق المسلمون الا القليل . كانت الغنائم - كالعادة - نتيجة للنصر ولم تكن غاية للفتح ، كما إن الغنائم لم تكن محفزاً كافياً لتكوين جيش منظم الى درجة تؤهله لمثل هذا النصر العظيم ، وبهذه السرعة ، وكذلك يؤهله الى الاحتفاظ بملكته ثم بناء حضارة رفيعة فيما بعد الاستقرار في اسبانيا ودخول عدد من المسلمين اليها . ويفسر المؤلف ، تفسيراً خاصاً ، ذلك النشاط الاسلامي ومبرراً فهمه - على طريقته هو - لكل تصرفات القادة والحلفاء خلال الفترة الاندلسية ويكاد يشك في نواياهم

جميعاً !!؟ (ص ٤٣ ، ٩٠ ، ٩٨) .

وفي الفصل الثالث المتعلق بفترة الإمارة يُخَصِّص المؤلف
قسماً كبيراً من حديثه عن الثورات الداخلية ليصور عدم أهلية
وكفاءة السلطة الاندلسية . وعند الحديث عن الاقلييات (ص
٥٣ وبعدها) ينسب المؤلف (أو يتناسى) بأن هذه الاقلييات
كانت متمتعة بكل أنواع الحريات بدرجة ليس أقل من التي
سيتمتعون بها لو سكنوا مجتمعاً لأبناء ملتهم (راجع : رينو ،
تاريخ غزوات العرب ، ترجمة وتعليق شكيب أرسلان ، بيروت ،
١٩٦٦ ، ص ٢٣١ ، ١٥٦ ، ٢٨٨ - ٩ ، ٣٠٣ - ٥) وكذلك كتاب :

Altamira y Crevea, *Historia de Espana*, Barcelona, 1900,
Vol. I, p. 229.

ومن ناحية أخرى يتحدث الاستاذ واط (في الفصل الأول)
بتفصيل عن الفتوحات وعوامل انتشار الاسلام مكرراً التأكيد :
بأن انتشار الاسلام في شبه الجزيرة العربية كان بالقوة وأن بسط
سلطان الاسلام كان بعوامل بعيدة عن الدين (ص ٧ - ٩ ، ٢٤) .
كل ذلك دون تدليلات ، كانت أحكامه بأشد الحاجة إليها ،
لكنه فضل أن يلقيها دون برهان ، ودونما سبب يمسكه عن
الإدلاء بها ! فهل انه يدرك - في قرارة نفسه - بطلان هذه
الاحكام أم أن تفكيره لم يسعفه هذه المرة باقتناص دليل ، اي
دليل ؟ [في مناقشة مثل هذه الآراء راجع : محمد كرد علي ،
الاسلام والحضارة العربية ، القاهرة ، ١٩٥٠ ، ١٥٠ / ١ ، وبعدها] .

فالإسلام الذي يُصَوَّرُه المؤلِّف هنا هو « إسلام » كما يصوره بعض المستشرقين وأبدعه خيالهم ، وليس هو إسلام القرآن الكريم ورسوله عليه الصلاة والسلام .

وحين يتحدث البروفسور واط عن التراث الفكري للأندلس ويذكر مصادره الاولى ، يتعرض للفلسفة فيذكر ابن طُفَيْل (ص ١٣٧ - ١٣٩) وابن رُشْد ، أما ابن حَيَّان القُرْطُبِيّ ، الذي يعترف المؤلِّف بأنه « أهم المؤرخين الأوائل » (ص ١٣٦) ، فيذكره في سطرين .. بخ .. بخ .. فقد عرّف المؤلِّف كيف يُجَنِّب نفسه مشقة التعرف على ابن حَيَّان القُرْطُبِيّ « شيخ المؤرخين » الاندلسيين . وحين يأتي الحديث عن قصة السيّد القمبيطور (El Cid) يهمل المؤلِّف ذكر نصّ ابن علقمة ، شاهد عيان ، عن الوحشية التي ارتكبتها « السيّد » في حق أهل بلَنَسِيَّة وحرّق قاضيها أبْن جحاف [راجع : ابن عذاري ، البيان المُغْرِب ، الجزء الرابع ، تعليق إحسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٧ ، ص ١٤٧ - ١٥١ ؛ ابن الأَبَّار ، الحُلَّة السَّيْرَاء ، تحقيق حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ٢ / ١٢٥ - ١٢٧ ؛ حسين مؤنس ، بحثه عن السيّد القمبيطور في المجلة التاريخية المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٠ ؛ ليفي بروفنسال ، الإسلام في المغرب والاندلس ، ترجمة السيّد محمود عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ص ٢٢٤ ؛ محمد عبدالله عِنان ، دول الطوائف ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ٢٣٤] بل ويكرر المؤلِّف

وصف « السيد » بالبطولة بأضعف (أو بدون) تبرير (ص ٩٤).

لكن المؤلف حين مناقشة الحياة الاقتصادية في الأندلس وأسباب نموها وإنتاج البلاد فإنه يصف ذلك بوضوح وبتفصيل وبيانات مهمة وهذه ناحية مهمة وهي تمثل حسنة في الكتاب ، بينما على العكس حين الكلام عن أسباب وحدة الأندلس وسقوطه يهمل أسباباً هامة مثل سياسة المنصور بن أبي عامر الخارجية والداخلية .

أما في الحقل الثقافي والاجتماعي والحياة الفكرية فإن الاستاذ واط لديه وجهة نظر هامة ! (خاصة به) ، وينشغل مرة أخرى بالحديث عن شبه الجزيرة العربية ليؤكد « أن ثقافة المسلمين الأوائل في الأندلس عربية أكثر منها إسلامية » (ص ١٦٦) . الرأي مرتبك ما دام لم يُحدّد وان الأدلة عليه افتراضية بصورة رئيسية . وبإشارته (ص ١٣٠) بأن « اللغة بالنسبة للمسلمين العرب لم تكن مجرد عرف - أو اصطلاح - بشري (اجتماعي) بل شيئاً أوجده الله » ، يظهر المؤلف وكأنه عربياً أكثر من العرب ! ويذكر المؤلف أن ابن حزم القرطبي^(١) قد اشتكى من قلة التقدير الذي ناله ، لكنه ينسى - أي المؤلف - أن ابن حزم هو الذي اعتز بياقوتة اسبانيا وحدها مكتفياً بها عن

(١) عن ابن حزم انظر ص ١٠٥ وبعدها .

امتلاك كل درر الصين ، فيقول :

ويا جَوْهَرِ الصِّينِ : 'سَحَقًا فَقَدْ

غَنِيَتْ' بياقُوتَةُ الانْدَلُسِ

لم تكن جميع المقارنات التي 'قدّمت في الكتاب متوازنة تماماً :
فإذا كان (ص ١٥١) للمُدَجَّنين (وهم : المسلمون الذين عاشوا
تحت ظل الحكم المسيحي الإسباني) حاكمهم المسلم الذي عينته
السلطات المسيحية فالكتاب لم يوضح بأن الأقليات التي عاشت
تحت ظل الحكم الإسلامي في الاندلس (مسيحيين أو يهود)
قد اختارت هي نفسها حاكمها ، وأنه - في الاندلس على الأقل -
لم 'تُجَبَّرْ هذه الأقليات ، في ظل الحكم الاسلامي ، ان تلبّس
لباساً خاصاً تتميز أو تُعرف به . ولا يمكن التسليم مع المؤلّف
حين الحديث عن الحب العذري في الاندلس بأنه على الأغلب ذو
أصل اسباني ، خاصة وانه نفسه يذكر في نفس الصفحة (ص ١١٦)
ترجمة لاتينية لأحد بديهيّات الحب العذري لدى العرب « إن
الحب لمن يحب مطيع » [عن مناقشة هذا الموضوع راجع :
ليفى بروفنسال ، الاسلام في المغرب والاندلس ، ص ٢٩٤] .

وهنا يأتي ذكر أمر مهم تركه المؤلّف وهو أنه لم يزود
كتابَه بدراسة مستقلة (أو كافية) عن تاريخ اسبانيا المسيحية
وأرضى نفسه بإشارات عابرة عنها ؛ بينما لا يمكن دراسة تاريخ
اسبانيا الاسلامية (الاندلس) أو المسيحية منفصلاً أحدهما عن

الآخر ، وان هذا الارتباط الذي لا بد منه بين الاثنين تنبه له
المؤرخون الاندلسيون فأفردوا قسماً خاصاً لتاريخ اسبانيا
المسيحية ، كابن خلدون وابن الخطيب [ابن خلدون ، العبر ،
٣٨٥/٤ - ٣٩٧ ؛ ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، تحقيق ليفي
بروفنسال ، بيروت ، ١٩٥٦ ، ص ٣٢٢ - ٣٣٨] .

ويتبين من الشروح والحواشي أن المؤلف لم يرجع مطلقاً إلى
المصادر الأولى للتاريخ الاندلسي : أمثال مؤلفات ابن حيان
وابن عذاري والعنذري وابن سعيد المغربي وابن الأبار وابن
الخطيب والمقري (الذي ترجم كاينجوس Gayangos
منتخبات من نفحه إلى الانجليزية) وغيرهم .

فحتى لو سلمنا أن الكتاب دراسة عامة عادية فإن الإشارة
إلى مثل هذه المصادر الأولى كان سيكون مفيداً إن لم يكن
ضرورياً . فكم ستكون قيمة كتاب عن تاريخ الاندلس خال
من المصادر العربية الأولى أو على الأقل ترجماتها؟ علماً بأن المؤلف
يعرف العربية على ما يتضح . أليس هذا دليلاً على أن المؤلف
يكتب في غير حقله ودون أهلية ؟ إن المؤلف الذي يحترم
تخصصه أو يحترم البحث العلمي لا يخاطر بوضع نفسه هذا
الموضع .

وفي قائمة المراجع يذكر المؤلف مصادر عربية حديثة
(لم يرجع هو إليها بل ذكرها لمن أراد الاستزادة) ، بعضها ذو قيمة

كبرى ، لكنه أهمل مؤلفات عدد من المتخصصين في هذا المجال
أمثال محمد عبدالله عنان وحسين مؤنس .

إن هذا الكتاب الذي يشمل كل تاريخ الأندلس وجوانبه
الحضارية ، مما لا يفي به كتاب بهذا الحجم والمنهج ، لا يمكن
قراءته دون تحفظ كما لا يمكن الاعتماد عليه ، وحتى من وجهة
النظر الغربية ، على حساب المستشرقين الآخرين الذين قدموا
إنتاجاً طيباً - عموماً - في هذه الدراسات أمثال : دوزي
الهولندي ورينو وليفي بروفنسال الفرنسيين .

وفي الفصل الأخير من الكتاب « أهمية إسبانيا الإسلامية »
يُقَوِّم المؤلف الأندلس - ويظهر هنا معتدلاً إلى حد ما -
وانه ، وخاصة هنا ، كتشمين مهم واعتراف بمكانة إسبانيا
الإسلامية وإثرها على أوروبا .



ابن صَيَّان القُرْطُبِي

مُؤَرِّخ الأَنْدَلُسُ *

ما تزال جوانب كثيرة من الدراسات الأندلسية ميداناً خصباً للباحثين ، والأمر سواء فيما يتعلق بالعلوم البحتة أو الدراسات الإنسانية وكافة التراث الفكري الذي أنتجته قريحة الحضارة الإسلامية في تلك البقعة الحبيبة من أرض الهدى والنور .

ولا شك ان هذا الوصف ينطبق كذلك على أبطال هذه الحضارة وبناتها الذين أسهموا بعقرياتهم في إقامة هذا البناء في كافة الميادين . فإن هؤلاء وأعمالهم بحاجة الى تعريف ودراسة .

* نُشر في جريدة (الدعوة) التي تصدر في الرياض ، العدد ١٥٤ ، ٣٠-٢-١٣٨٨/٢٧-٥-١٩٦٨ .

وقد لا نعرف عن كثير منهم إلا القليل، وما نعرفه من إنتاجهم
اقل، وآخرون قد فقد بعض إنتاجهم أو ربما جميعه .

ومن هؤلاء ذلك العالم الأديب المتمكن والمؤرخ النزيه والناقد
الجريء : ابن حَيَّان القرطبي ، الذي يستحق منا لقب « مؤرخ
الاندلس » . وللأسف لم يصلنا من إنتاجه إلا القليل الذي أفلت
من يد الضياع وعميت الجهالة عن إعدامه .

واسم هذا المؤرخ الكامل : أبو مروان حَيَّان بن خلف بن
حسين بن حَيَّان بن محمد بن حَيَّان القرطبي ؛ واشتهر بـ « ابن حَيَّان »
وإذا أطلقت هذه الكنية « ابن حيان » فلا تدل لأول وهلة إلا
على أبي مروان حيان بن خلف المؤرخ .

ولد مؤرخنا في قرطبة سنة ٣٧٧ هـ / ٩٨٧ م وبها توفي في
يوم الأحد ٢٨ من ربيع الأول ٤٦٩ هـ / ٣٠ تشرين الأول (اكتوبر)
١٠٧٦ م^(١) . وهو أموي بالولاء ، وكان جده الأول حَيَّان مولى
لعبد الرحمن الداخل كما كان أبوه خلف بن حسين من كُتَّاب
المنصور بن أبي عامر^(٢) .

(١) ابن بَشْكُوَال ، الصلاة ، ص ١٥٤ .

(٢) ابن الأَبار ، إعتاب الكُتَّاب ، ص ١٩٨ .

مكانته

أكثر المؤرخون النقل من مؤلفاته ، ولقد أوضحت المنقولات عنه تعطي قبعة أخرى مهمة للنص الذي يتضمنها ؛ ذلك بديهي لأن ابن حيان كان عالماً من الطراز العالي واسع الدراية في مختلف الميادين ، لكنه في التاريخ أبرز . وقدلنا كتابته في التاريخ على أدبه الرفيع وانه صاحب أسلوب سلس معبر رصين سهل العبارة مع فصاحة وبلاغة وبعد عن التزويقات اللفظية والزركشة السطحية .

لقد أثنى عليه كافة الكتّاب تقريباً (والمؤرخون خاصة) ووصفوه بمختلف أوصاف الشناء التي تدل على مكانته الممتازة لديهم وعلو كعبه في عدد من العلوم ، لكنه اشتهر كمؤرخ مرموق المكانة . فأورد ابن سعيد المغربي ^(١) في وصفه بأنه « شيخ الأدب والمؤرخين » في الأندلس . وذكر الحميدي ^(٢) بأن « له حظ وافر من العلم والبيان وصدق الإيراد » .

مؤلفاته

أهم مؤلفات ابن حيان ، وهي كثيرة ، في التاريخ . أوصل

(١) المغترب في محلى المغرب ، ١١٧/١ .

(٢) جذوة المقتبس ، ص ١٨٨ ؛ ابن بسام ، الذخيرة ، ٨٥/٢/١ .

بعض الكتّاب مؤلفاته الى خمسين مؤلفاً، للأسف فقد أكثرها ،
وليس لنا من بعضها إلا منقولات والباقي لا نعرف غير أسمائها ،
منها كتاب « المتين » ويقع في ستين جزءاً فقدت كلها .

والكتاب الوحيد الذي بقيت لنا منه بعض أجزاءه هو كتاب
«المقتبس في أخبار بلد الأندلس» في عشرة أجزاء بقي أقلها .
وقد قمت بتحقيق أحد أجزاءه ونشر في بيروت ١٩٦٥ . والأمل
أن تظهر الى النور أجزاء أخرى من هذا المؤلف القيم الذي يعتبر
من أهم المؤلفات في التاريخ الاندلسي .

فابن حبان بحق عميد المؤرخين الاندلسيين وإمامهم
لا بمعلوماته وإحاطته بالأحداث التاريخية ومجريات الأمور بدقة
وتفصيل بل وكذلك بصواب نظريته وطريقة تحليله وتلخيصه
وأصالة رأيه وعدالة نقده ونزاهة حكمه ؛ بالإضافة الى استفادته
من تواليف السابقين له في هذا الحقل ، الذين فقد انتاجهم . وتصل
الدقة في أخباره انه لا يكتفي بتعيين يوم الحادثة التي يذكرها
بل يذكر الساعة ، كما يعطي أحياناً التاريخ الهجري ومقابله
الميلادي (١) .

(١) المقتبس ، طبعة بيروت ، ص ٢٨٠ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٧٣ ، ٢٧٦ ،
١٠١ ، ١٠٧ . وراجع مقدمة هذا الجزء من المقتبس .

ومن أسف أن ابن حيان لم يظفر لحد الآن بدراسة تتناسب
ومكانته ، والرجاء أن تظهر عنه دراسة علمية شاملة حياته
وانتاجه .

رحم الله مؤرخ الأندلس ابن حيان القرطبي أحد بُناة
حضارة الاسلام في الاندلس وأظهرَ مزيداً من إنتاجه للنور .



* ابن عَزْمُ القُرْطُبي مِنْ خِلَالِ كِتَابِهِ "طَوْقُ الْحَمَامَةِ"

تَلَّتْ سَقُوطَ خِلَافَةِ الأَنْدَلُسِيَّةِ سَنَةَ ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م
فَتَرَةً مِنْ الفَوْضَى أَدَّتْ إِلَى قِيَامِ مَا يُسَمَّى بِـ « مُلُوكِ أَوْ دُولِ
الطَّوَانِفِ » فِي الأَنْدَلُسِ ؛ حَيْثُ ضَاعَتْ وَحُدَّتْهُ بِقِيَامِ هَذِهِ
الدُّوَلِ المُسْتَقِلَّةِ المُتَنَافِثَةِ المُتَهَافِتَةِ الَّتِي قَامَتْ بَيْنَهَا الحُرُوبُ
وَالنِّزَاعَاتُ . وَكَانَ لِسِيَّاسَةِ المَنْصُورِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ ، فِي دَاخِلِ
الأَنْدَلُسِ وَخَارِجِهِ ، أَثَرٌ فِي هَذِهِ النِّهَايَةِ المَحْزَنَةِ الَّتِي حَلَّتْ
بِالأَنْدَلُسِ .

وَفِي هَذَا الجَوِ السِّيَاسِيِّ المُرْتَبِكِ نَشَأَ العَبْقَرِيُّ وَالمُفَكِّرُ
الكَبِيرُ إِبْنُ عَزْمُ الفَقِيهِ .

* نُشِرَ فِي جَرِيدَةِ « الْجَزِيرَةِ » الأُسْبُوعِيَّةِ الَّتِي تُصَدَّرُ فِي الرِّيَاضِ ، العَدَدُ :
١٧٤ ، فِي ١٨ رَمَضَانَ ١٣٨٧ / ١٩ كَانُونِ الأولِ (دِيَسَمْبَرُ) ١٩٦٧ .

وُلِدَ إِبْنُ حَزْمٍ (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حَزْمٍ)
في مدينة قُرْطُبَة Cordoba ، عاصمة الأندلس ، في ٣٨٤ هـ /
٩٩٤ م وترعرع في بيت شرف وعلم . وكان أبوه أحمد ذا ثقافة
عالية ومكانة رفيعة في الدولة . وقد أفاد إِبْنُ حَزْمٍ من أبيه
كثيراً ومن مجالسه التي كَتَعَرَفَ فيها إلى عدد من رجال الدولة
والعلماء والمفكرين .

وقد إشتغل إِبْنُ حَزْمٍ بالسياسة فترة من الزمن . فَوَزَرَ في
قُرْطُبَة لعبد الرحمن الخامس في سنة ٤١٤ هـ . لكنه بعد
جولات في الحياة السياسية طلقها وانصرف عن هذا الميدان
ليعيش في ميدانه الطبيعي : مَيِّدَانِ العلم .

وَيُعْتَبَرُ إِبْنُ حَزْمٍ من العلماء الموسوعيين الذين أنتجهم
الأندلس فكان متعدد النشاط الفكري وبرز في كل ما خاضه
منها . وكان متعدد الحَيَوَات : حياة سياسية وعلمية ودينية
وعاطفية . وقد فُهِمَ الإسلام على إنه جَمَاع كلها ، فَالَّفَ في
التاريخ والأدب والأنساب والفلسفة والفقه والشريعة ، وكذلك
في الحب وهو ما سَأَعْنَى به هنا .

أَوْرَثَنَا إِبْنُ حَزْمٍ عِلْماً قَيِّماً وَثَرَاثاً غنياً ، حيث بلغت
مؤلفاته التي لم يصلنا أكثرها قرابة أربعمئة مجلد كما يروي ذلك
إبْنُه الفضل أبو رافع . فخدم بذلك العلم بكل طاقاته وما

أوتيت من عبقرية حتى نهاية عمره البالغ اثنتين وسبعين سنة .
وتوفي في ٢٨ شعبان سنة ٤٥٦ هـ / ١٥ آب (أغسطس) ١٠٦٣ م .
وبها طويت صفحات عالم من أكبر ما عرّفت الأندلس وأكثرهم
علماً وأغزرهم إنتاجاً .

ولا أريد أن أتحدث عن هذا الإنتاج الغزير العميق الذي
خطه يراع فقيه الأندلس ، وإنما أريد أن أفردَ بالحديث
كتابهِ : (طوق الحمامة في الألفة والألاف) أي في الحب
والحبين . ولقد كتبه أثناء إقامته في مدينة شاطبة Jativa
في حوالي سنة ٤١٨ هـ (١) .

وهذا الجانب يبرز فيه ابن حزم أيضاً ، ويروي لنا في هذا
الكتاب تجاربَ به وتجاربَ غيره . فالكتاب قائم على الصدق
والعمق والتجربة . فهذا الجانب (الحب العفيف) الذي عاناه
ابن حزم وتسجيله نظراته التحليلية في كتاب يجعل منه
موجهاً في الحب الشريف ومداوياً لقلوب الحبين وأرواحهم من
الطراز العالي . فيحدثنا بصراحة عن حبه ومعاناته فيه ، وأنه
خرج من ذلك كله عفاً طاهرَ الثوب وكان له من دينه خير
واق ومن قلبه المؤمن دليل مشرق ، فكان كما يقول الرافعي :

(١) راجع : عبد الكريم خليفة ، ابن حزم الأندلسي (حياته وأدبه) ،
بيروت (١٩٦٨) ، ص ١٨٧ ؛ أبو زهرة ، ابن حزم ، القاهرة ، ١٩٥٤ ،
ص ٤٧ ، ١٦٧ .

قلبي 'محب' وإنما أخلاقه فيه ودينه

ينقسم كتاب « طوق الحمامة » إلى ثلاثة أقسام من حيث الموضوع تقع كلها في ثلاثين باباً .

القسم الأول :

في أصول الحب وهو في عشرة أبواب هي : الكلام في ماهية الحب ، علاماته ، مَنْ أحب في النوم ، مَنْ أحب بالوصف ، مَنْ أحب مِنْ نظرة واحدة ، مَنْ لا يحب إلا مع المطاولة ، التعريض بالقول ، الإشارة بالعين ، المراسلة ، السفير .

القسم الثاني :

يتعلق بأعراض الحب وصفاته الحمودة والمذمومة وهو في إثني عشر باباً : باب طي السر ، الإذاعة والكشف ، الطاعة ، المخالفة ، المساعد مِنْ الاخوان ، الوصل ، القُنُوع ، الوفاء ، الغَدْر ، مَنْ أحب صفة لم 'يحب بعدها غيرها ما يخالفها ، الضنى ، الموت .

القسم الثالث :

يتعلق بالآفات الداخلة على الحب ، وهي في ستة أبواب :

العاذل ، الرقيب ، الواشي ، الهَجْر ، البَيْن ، السِّلْو .
وَحَتَمَ الكتابَ ببابين هما : باب عن الكلام في قبح المعصية
وباب في فضل التعفف .

والذي يظهر أن الكتاب الذي لدينا (طَوْقُ المحاماة)^(١)
غير كامل . ولعله مختصر من الكتاب الأصلي الذي لا نعرف له
وجوداً ولربما يخرج يوماً من طي الضياع .

يكشف لنا الكتاب عن قابلية ابن حزم الأدبية (شعراً
ونثراً) كما يكشف عن عمق نظراته وجمال تحليلاته النفسية
وصدقها . وهو يعرض بصراحة كثيراً من التجارب التي عاناها
وتجارب غيره مع دراستها ما دامت هي واقعة ومتكررة ، وهي
غير منكورة إذا كانت سليمة الاتجاه .

ولم يكن ابن حزم معنيّاً بالتأليف في الحب عنايةً
بالعلوم الأخرى . وكان هذا الكتاب (طَوْقُ المحاماة) إستجابة
لرجاء أحد أصدقاءه في أن يُصَنَّفَ له كتاباً أو رسالة في
(صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه) ، الأمر الذي أتاح
لصاحبنا فرصة يسجل فيها تجاربه وآراءه ؛ وكان صريحاً
وصادقاً في عرض هذه التجارب . كَفيَرُوي - مثلاً - أنه

(١) طبع الكتاب أكثر من مرة ، منها طبعة القاهرة (١٩٥٩) .

أَحَبُّ في صباه جارية شقراء الشعر فلم يستحسن منذئذ
 « سوداء الشعر ، ولو أنه على الشمس أو على صورة الحسن
 نفسه »^(١). ثم كَلِّفَ بجارية إسمها (نَعْم) فأحبها عظيم الحب .
 « وكانت أمنية المتمني وغاية الحسن خَلِيقاً وَخُلُقاً ... »^(٢) .
 فتزوجها وهو دون العشرين من عمره لكنه لم يهنأ بحبه ، إذ
 اخْتَرَمَتْهَا الْمَنِيَّةُ ، فكان أشدَّ تَكَلُّباً بها من الأم بالوحيد .
 قال يصفها :

مَهْدَبَةٌ بِيضَاءُ كالشمس إن بَدَتْ
 وسائرُ رَبَّاتِ الْحِجَالِ نُجُومُ

أَطَارَ هواها القلبَ عن مُسْتَقَرِّهِ
 فَبَعْدَ وُقُوعِ ظِلِّهِ وهو يَحُومُ

وقال يرثيها :

كأنني لم آتسُ بِالْفَاطِكِ التي
 على عُقَدِ الْأَلْبَابِ هُنَّ نَوَافِثُ

ولم أَنَحْكَمْ في الْأَمَانِي ... كأنني
 لِإِفْرَاطِ مَا حَكَّمْتُ فِيهِنَّ عَابَثُ

(١) طوق الحمامة ، ص ٢٨ .

(٢) طوق الحمامة ، ص ٩١ .

وَيُعْتَبَرُ كِتَابُ « طَوْقُ الْحَمَامَةِ » نَمُودَجًا عَالِي الْعِفَّةِ فِي مَعَانِي الْحُبِّ وَأَحْوَالِ الْعَاطِفِيَّةِ وَمَوَاصِفَاتِهِ الْقَلْبِيَّةِ . وَصَفَ كُلَّ ذَلِكَ بِأَسْلُوبِ الشَّاعِرِ الرَّقِيقِ وَالْخَبِيرِ الَّذِي ذَاقَ أَحْوَالَ الْهَوَى الْعَذْرِيَّ وَخَاضَ غَمَارَهُ فِي مَدَّةٍ وَجَزَرِهِ وَفَيْضِهِ وَغَيْضِهِ . وَكَانَ خِلَالَهُ نَاسِكًا لَا يُفَارِقُهُ نُسُكُهُ ، يَرْفُضُ كُلَّ صِلَةٍ لَا تَقُومُ عَلَى التَّقْوَى (الْأَخْلَاءُ) يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (١) . وَالْحُبُّ الْعَفِيفُ نَبِيلٌ رَفِيعٌ وَهُوَ مَعْرُوفٌ فِي الْإِسْلَامِ لَهُ تَقَالِيدُهُ الطَّهْوَرَةُ ، وَكَانَ ذَلِكَ شَائِعًا عِنْدَ مُسْلِمِي الْأَنْدَلُسِ ، وَهُوَ حُبُّ يَقُومُ عَلَى الْعِفَّةِ الَّتِي يُعْتَبَرُ « وَجُودُهَا دَلِيلًا قَاطِعًا عَلَى مَا يَكْمُنُ فِي نَفُوسِ الشُّعُوبِ الْإِسْلَامِيَّةِ مِنْ مِثَالِيَّةٍ عَظِيمَةٍ » (٢) .

وَالْإِسْلَامُ تَرْبِيَّتُهُ الْوَاقِعِيَّةُ الْمُنْتَسِقَةُ مَعَ طَبِيعَةِ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ الَّتِي يَهْدِيهَا وَيُرْعَاهَا بِأَسْلُوبِهِ الْفَذُّ الْمُتَمَيِّزُ لِلِإِبْقَاءِ عَلَى هَذَا الْحُبِّ الطَّاهِرِ وَالْحِفَاظَةِ عَلَيْهِ عَفِيفًا نَظِيفًا ، فَلَا يَبْدِعُ الْمُسْلِمُ دِينَهُ بِحُبِّهِ . وَعَلَى هَدْيٍ مِنْ هَذِهِ الرُّوحِ حَثَّ الْإِسْلَامُ عَلَى اقْتِرَانِ الْمُتَأَلِّفِينَ بِالزَّوْجِ وَعَدَمِ الْوُقُوفِ أَمَامَ تَكْوِينِ عَشْرِ الْأَلْفَةِ . وَالْإِسْلَامُ فِلَسَفَتُهُ الْخَاصَّةُ الَّتِي يَنْفَرِدُ بِهَا كِعَادَتُهُ فِي كُلِّ شَأْنٍ مِنَ الشُّؤُونِ .

(١) الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ ، ٦٧/٤٣ .

(٢) بِالنِّشَاءِ ، تَارِيخُ الْفِكْرِ الْأَنْدَلُسِيِّ ، ص ٢١٤ .

لكن ابن حزم ما كاد يتنعم حلاوة هذا العش الندي حق
حرمة ، الأمر الذي أوجع عاطفته وأسأل على لسانه الشعر
الجميل ، العميق في صدقه ، المشرق في صورته وتصوره . ولربما
يؤدي الحرمان أحياناً إلى الابداع . فكان (طوق الحمامة)
كتاب الحب التقي وديوان الهوى النقي ، لعل مؤلفه أراد
به أن يكون منهجاً إيمانياً تقياً يسير عليه المحبون .

وقد جعل آخر أبوابه في (فضل التعفف) ليكون - كما
يعلل ذلك في بداية الكتاب - « خاتمة إيرادنا وآخر كلامنا
الحض على طاعة الله عز وجل والأمر بالمعروف والنهي عن
المنكر وذلك مُفْتَرَض على كل مؤمن » .

وجدير أن يتدبر الشباب المسلم معاني هذا الكتاب الرفيعة
ويعتبر اتجاهه السليم .

وقد انتقل هذا الكتاب بشعره العاطفي وما فيه من تحليل
لخلق الحب الاسلامي إلى أوروبا فترجم إلى عدة لغات
أوروبية وإلى الروسية أيضاً .

ابن حزم الأندلسي الفقيه الأديب

كان عقلية فذة ومثالاً حياً للعقيدة التي عاش لها ، كما كان غزير الانتاج فبلغت مؤلفاته اربعمائة مجلد ضاع أكثرها . وهو الذي خرجت قرطبة ، قبل خمس سنوات ، لتحتفل به ابننا كبيراً .

لا يستطيع باحث أن يوفّي ابن حزم حقه في مقالة . وليس هذا البحث القصير إلا تعريفاً مقتضباً بهذا الإمام الذي يستحق دراسة أو أطروحة مستقلة يُكسّرُس لها الجهد الطويل .

كان صاحبنا علماً من أعلام الإسلام الكبار في الغرب الإسلامي : أرض الأندلس « الفردوس الموجود » .

عصره

بعد إفتتاح الأندلس واستقرار المسلمين فيه قامت هناك على

أيديهم مدنية بلغت حضارة الإسلام فيها القمة . كما أن الحكام والخلفاء قد عاشوا حياتهم يخدمون الفكر والعلم في تلك البقاع . وكما كانت هذه الأرض الطيبة أصفى وأغنى منهل في العالم وردة طلاب المعرفة من كافة أقطار الدنيا ، كانت أيضاً أكبر معبر لحضارة الإسلام إلى الغرب قاطبة .

ثم جاء إلى السلطة محمد بن أبي عامر الملقب بالحاجب المنصور (المتوفى ٣٩٢ هـ / ١٠٠٢ م) الذي كانت للأندلس في عصره قوة عسكرية كبيرة ، ولكن عهد هذا الرجل كان ذريعة للتدهور سياسيته الداخلية الفردية الكابتة المستبدة والخارجية المثيرة للعداوة والبغضاء . وبإنتهاء الدولة العامية في ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م بدأت الفتنة الحالقة التي تمخضت عن قيام « دول الطوائف » ، حيث ضاعت وحدة الأندلس وقسمت إلى حوالي عشرين إمارة . وكان هذا الضياع نتيجة لفقدان الخط الخلفي المسلم المتميز . ووضع المرباطون نهايةً لعصر « دول الطوائف » في ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م .

مولد ابن حزم ونشأته

عاش ابن حزم في فترة الطوائف التي تميزت بالإرتباك السياسي الذي يملأ الرأس حيرة والنفس حسرة . ولما لم يتيسر له النجاح السياسي إنصرف إلى العلوم فحقق الإنجازات الواسعة وأسهم في إثراء الفكر الإسلامي والفقه من على وجه الخصوص . ومع أن أحوال ذلك العصر كان لها أثرها في حياته الشخصية والسياسية

والعلمية فإنه نشأ من طراز آخر ؛ فقد كان إحدى ثمرات ذلك الغرس الذي وضعته أيدي الخلفاء قبل عصر الطوائف المضطرب .

ولد ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم) في مدينة قرطبة Cordoba قاعدة الأندلس ، فجر الأربعاء آخر رمضان عام ٣٨٤ هـ / تشرين الأول (أكتوبر) ٩٩٤ م . واختلف في أصله ، ف قيل : إنه فارسي الأصل ، وإذا كان هذا الرأي أكثر تداولاً فلا يعني بالضرورة أكثر رجحاناً ؛ كما قيل : إنه من أصل نصراني إسباني ، لما أورده ابن حبان المؤرخ الثبت في هذا الأمر ^(١) . ولعل هذه المسألة ما تزال بحاجة إلى مزيد من البحث ^(٢) .

نشأ صاحبنا في بيت ثراء ووزارة كما هو بيت علم ومعرفة . فقد كان أبوه (أحمد) مثقفاً ثقافة عالية وله مؤلفات . وكان أحمد هذا من أصدقاء الحاجب المنصور الذي إستبد بحكم الأندلس . وبلغت صلة المنصور بأحمد أن اتخذه وزيراً ، وكان يستخلفه على المملكة أثناء غيابه ^(٣) . وقد توفي عام ٤٠٢ هـ / ١٠١٢ م ، يوم كان عمر ابنه « علي ابن حزم » ثمانية عشر عاماً .

(١) ابن بَسَّام ، الذخيرة ، ١ / ١ / ٤٢ .

(٢) راجع : الحاجري ، ابن حزم ، ص ١٧ ؛ أبو زهرة ، ابن حزم ، ص ٢٣ - ٢٦ ؛ خليفة ، ابن حزم الأندلسي ، ص ١١ - ١٦ .

(٣) ابن الأثير ، إعتاب الكتّاب ، ص ١٩١ .

وكان الابن قد استفاد كثيراً ، عقلاً وعلماً وفضلاً ، من والده
ومجالسه ، حيث تعرف فيها إلى العلماء والشيوخ .

شيوخه وتلاميذه

تلقى ابن حزم المعرفة على عدد من العلماء المعروفين في
الاندلس ، تعرف إلى كثير منهم في مجالس أبيه . وكان أبوه
نفسه أديباً وعالماً ، وهو الذي يقول : « إني لأعجب ممن يلحن
في مخاطبته ، أو يجيء بلفظة قلقة في مكاتبته ، لأنه ينبغي له إذا
شك في شيء أن يتركه ويطلب غيره ، فالكلام أوسع من
هذا » (١) . ولا شك أنه كان للرجوع العلمي ، في مجالس والده ،
اثر في تكوينه . ومن شيوخه :

(١) أبو علي الحسين بن علي الفاسي ، وكان هذا « من أهل
العلم والفضل ، مع العقيدة الخالصة والنية الجميلة » (٢) . كما كان
« عاقلاً عالماً ، ممن تقدم في الصلاح والنسك الصحيح في الزهد في
الدنيا والاجتهاد للآخرة » (٣) . فنفذ الله به ابن حزم كثيراً .

(٢) أبو القاسم عبد الرحمن بن أبي يزيد الأزدي ، وكان

(١) الحُمَيْدِي ، جَنُودَةُ الْمُقْتَبَسِ ص ١١٨ (رقم ٢١٤) .

(٢) الحميدي ، ص ١٨١ (رقم ٣٧٣) ؛ ابن حزم ، طَوْقُ الْحَمَامَةِ ،

ص ٧٢ .

(٣) ابن حزم ، الطوق ، ص ١٢٦ .

عالمًا عاملاً معروفاً (١) .

(٣) أحمد بن محمد بن أحمد بن سعيد ، المعروف بـ « ابن
الجبور الأموي » . وهو أول شيخ سمع منه ابن حزم قبل
الأربعمئة (٢) .

وهناك شيوخ آخرون تلقى عنهم ابن حزم في كل فن (٣) .
ومن تلاميذه :

(١) الحميني صاحب كتاب « جَذْوَةُ الْمُقْتَسَبِيس » .
وهو الذي أدخل كتب ابن حزم إلى المشرق .

(٢) صاعد الاندلسي (الطُلَيْطُلِي) ، صاحب كتاب
« طبقات الأمم » .

(٣) أبو محمد بن العربي والد الفقيه المعروف : أبي بكر بن
العربي .

حياته السياسية

بعد ذهاب وَحْدَةِ الاندلس وخلافته ظهرت عدة شخصيات

(١) ابن حزم ، الطوق ، ص ١١٧ ،

(٢) الحميني ، ص ٩٩ - ١٠٠ (رقم ١٨١) ؛ الأفغاني ، ابن حزم
الاندلسي ، ص ٣٤ - ٣٨ .

(٣) عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة) ، ص ٢٥٤ -
٢٥٦ ؛ بالنشيا ، تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ٢١٣ .

تدعو إلى لمّ الشعث وإعادة الوحدة والخلافة ، وكان علي بن حزم من هؤلاء . ولما توفي أبوه أحمد عام ٤٠٢ هـ استقر في قرطبة فترة ، وهي مضطربة بالفتن . وفي ٤٠٤ هـ رحل فقيها عن قرطبة إلى المَرِيَّة Almeira ، فاعتقله صاحبها خيثران العامري لشكه في نواياه . ولما أطلق سراحه بعد عدة أشهر ، ذهب إلى بلَنَسِيَّة Valencia فاستوزره فيها عبد الرحمن الرابع الملقب بـ « المُرْتَضَى » ، ثم استقر في غرناطة Granada فترة . وفي ٤٠٨ هـ عاد أدراجه إلى قرطبة ، بعد أن أخفق في القيام بأي عمل إيجابي لاعادة الخلافة الأندلسية .

وجد ابن حزم أن الاحوال في قرطبة قد تغيرت خلال غيبته غير الطويلة عنها ، حيث كانت الاندلس تحتاز فترة من الفتنة عُرفت في التاريخ بـ « عصر ملوك (أو دول) الطوائف » . رأى أن أصدقاءه بعضهم قد تشتت في البلاد ومات البعض الآخر . ولعل هذا أثار في نفسه الأسف والحرقه ، خاصة وأنه لم يُصب شيئاً من وراء إشتراكه في المعترك السياسي وركوبه أمواجه المتقلبة ؛ كل ذلك حوّل اهتمامه إلى تلقي العلوم . لكنه في سنة ٤١٤ هـ أعاد الكرة الى خوض الحياة السياسية حيث وسّد اليه الوزارة ، في قرطبة ، عبد الرحمن الخامس (بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر) الملقب بـ « المُسْتَظْهِر »^(١) .

(١) صاعد الاندلسي ، طبقات الأمم ، ص ٧٦ ؛ الافغاني ، ص ٢٧ ؛ دائرة المعارف الاسلامية (الترجمة العربية) ، ١ / ١٣٧ .

ولما تكررت خيبته في السياسة ، طلقها طلاقاً بائناً لينصرف
بكلية الى الحياة العلمية : ميدانه الحقيقي (١) .

حياته العلمية

يُعتبر ابن حزم القرطبي - كما يسمى أحياناً - من أولئك
الموسوعيين (كُتّاب الموسوعات) الذين عرفتهم الاندلس ،
أرض الأجداد . تعددت جوانب نشاطه الفكري وكان في كل
منها يبدو وكأنه 'مكرّس' كل جهوده لذلك الحقل وحده ؛ كما
تعددت جوانب حياته من سياسية وعلمية ودينية وعاطفية .
وقد فهم الاسلام على أنه جَماع لكلها وبأنصع الصور وأنقاها .
ووصفه صاعد بأنه « كان أجمع أهل الاندلس قاطبة لعلوم
الاسلام وأوسعهم معرفة ، مع توسُّعه في علم اللسان والبلاغة
والشعر والسير والاختبار » (٢) . فالتف في التاريخ والادب
والفلسفة والفقه والشريعة وغيرها . ولكنه كان قبل كل شيء
إماماً في الفقه وأصولياً كبيراً عميق الغور كما كان واسع المعرفة
بالأديان والعقائد الاخرى .

إن خوضه المعترك السياسي ، رغم إخفاقه فيه ، شجّد همته
وأيقظ نفسه وساعده على التزود بإرادة حديدية قاوم بها كل
التحديات . وعندما هجر الحياة السياسية عاد يتنقل في مدن

(١) عبد الواحد المراكشي ، المُعْجِب ، ص ٩٣ .

(٢) نقله المقرئ في نفح الطيب ، ٢ / ٢٨٣ .

الاندلس، لا يشترك هذه المرة في أي عمل سياسي لكن لِيَلْتَقِيَ
بالعلماء وأهل المعرفة ، مُتَفَقِّهًا بعلمهم أو مجادلًا لهم ، حيث
عُرِفَ بمهارته الجدلية العالية ، وكان قويا وصريحا في جدله
« يَصُكُّ به مُعَارِضَه صَكُّ الْجَنْدَلِ » (١) .

ومن طريف مجادلاته أنه حينما ذهب إلى جزيرة مَيُورُوقَة ناظره
هناك الفيلسوف أبو الوليد الباجي . فيروي لنا المَقْرِي (٢) أن
الباجي قال لابن حزم : (« أنا أعظم منك همة في طلب العلم ،
لأنك طلبتَه وأنت مُعَانٌ عليه تسهر بِمَشْكَاة الذهب ، وطلبتَه
وأنا أسهر بقنديل بائت السوق ؛ فقال ابن حزم : هذا الكلام
عليك لا لك ، لأنك إنما طلبتَ العلم وأنت في تلك الحال رجاء
تبديلها بمثل حالي ، وأنا طلبتَه في حين ما تعلمه وما ذكرته ،
فلم أَرْجُ به إلاَّ « عُدُوَّ القَدَرِ العلمي في الدنيا والآخرة » ،
فأفحمه) .

ولم تقتصر مجادلاته على العلماء المسلمين بل تعدتهم الى علماء
الأديان الاخرى . ومجادلته وردة على يوسف بن اسماعيل بن
النِغْمَرِيْلَة (اليهودي) ، وزير باديس صاحب غرناطة ،

(١) ابن بسام (نقلًا عن ابن حَيَّان) ، الذخيرة ، ١ / ١ / ١٤١ .
« و الجندل : الصخر العظيم ؛ ويقال في المثل عن متناظرين شديدين :
(جندلتان اصطكتا) » .

(٢) نفح الطيب ، ٢ / ٢٨٢ .

معروفة (١) .

وكان في كل ذلك ذكي الفؤاد قوي الحجة بارع الدليل
حاضر البديهة واسع الأفق حسن التصرف كثير المعرفة .

ولقد وُصِفَ بأنه « كالبحر لا تكف غواريه ،
ولا يروى شارب ، وكالبدر لا تحمد دلائله ، ولا يمكن
تأمله (٢) . »

وكان ابن حزم يتنقل في مدن الاندلس كشاطبة Jativa
والمرية وبلنسية وغيرها . وأقام فترة في شاطبة (حيث
صنّف كتابه « طوق الحمامة ») ، وكانت خاضعة
للصقلبيين العائرين : مبارك ومظفر اللذين كانت تربطه
بهما علاقات حسنة (٣) .

واستقر بعد الترحال في بادية لبلة Niebla فقصد الطلبة
والمريدون وقضى بقية حياته بين التدريس والتأليف حتى وافته
المنية سنة ٤٥٦ هـ .

مؤلفاته

كان ابن حزم من أكثر خلق الله إنتاجاً ، إذ بلغت تأليفه

-
- (١) راجع : رسالة ابن حزم : « الرد على ابن النغيلة اليهودي » ،
تحقيق إحسان عباس ، القاهرة ، ١٩٦٠ .
(٢) ابن سعيد المغربي ، المغرب في حلسى المغرب ، ٣٥٤/١ .
(٣) خليفة ، ابن حزم الأندلسي ، ص ٥٩ ؛ أبو زهرة ، ص ١٦٧ .

حوالي أربعمئة مجلد ، تشتمل على ثمانين ألف ورقة تقريباً ، كما يروي ذلك ابنه الفضل المعروف بـ « أبي رافع »^(١) ، ولكن فقد أكثرها . ويذكر ابن حبان^(٢) أنه : « كَمَل من مُصَنَّفاته في فنون العلوم وقُرُء بعير » .

والذي وصلنا من مؤلفاته قد يربو على الثلاثين مؤلفاً أكثرها مطبوع^(٣) ؛ كلها تشهد بالذكاء والعمق والدقة والأمانة العلمية التي إتصف بها ابن حزم . ومنها على سبيل المثال :

١ - « الفصل في المِلَل والأهواء والنَحَل » ، أول كتاب في موضوعه وهو تاريخ للأديان والعقائد والمذاهب ونقدها ومناقشتها ، فهو دراسة مقارنة للعقائد ، وهو مطبوع .

٢ - « إبطال القياس والرأي والاستحسان والتقليد » ، مطبوع .

٣ - « جَهْرَة أنساب العرب » ، ويُعتبر من أحسن وأدق ما كُتِب في هذا الموضوع ، مطبوع .

(١) المَقَرِّي ، نفح الطيب ، ٢ / ٢٨٨ .

(٢) ابن بسام ، الذخيرة ، ١٤١ / ١ / ١ . الورق : الحمل الثقيل .

(٣) راجع : خليفة ، ابن حزم ، ص ١٢٨ - ١٣٤ .

٤ - « المُحَلَّسَى بِالْآثَارِ فِي شَرْحِ الْمُجَلَّسَى بِالِاخْتِصَارِ » ،
ويقع في أحد عشر جزءاً ، مطبوع .

٥ - « جوامع السيرة » ، مطبوع .

٦ - « مسائل أصول الفقه » ، مطبوع .

٧ - « طوق الحمامة في الألفَة والألاف » ، مطبوع ،
وهو نظرات دقيقة وتحليل عميق في فلسفة الحب والمحبين .

٨ - « الأخلاق والسَّيَرُ فِي مَدَاوِةِ النُّفُوسِ » ، مطبوع
ومترجم الى الفرنسية .

٩ - « الاحكام في أصول الأحكام » ، مطبوع في ثمانية
أجزاء .

١٠ - « حِجَّةُ الْوَدَاعِ » ، مطبوع .

وله عديد من الرسائل نُشرت مفردة أو في مجاميع ، ولا
يزال بعض كتبه ورسائله غير منشور .

مذهبه في الفقه

كان ابن حزم مُوزَّعاً بين السياسة والأدب حتى سن السادسة
والعشرين ، ثم تحول الى دراسة العلوم الشرعية . ويُروى في
سبب هذا التحول أنه كان مرة في مسجد فظهر جهله بفروض

الصلاة ، الأمر الذي دفعه الى دراسة الفقه ، ثم سار في تلقي العلوم الإسلامية بتوسع^(١) .

كان في بداية إتحامه هذا مالكياً ثم شافعيًا^(٢) لكنه ما لبث أن إستحسن المذهب الظاهري فتحول إليه ، وبقي كذلك حتى وفاته^(٣) . ومؤسس هذا المذهب أبو سليمان داود بن علي الأصبهاني^(٤) المعروف بالظاهري . وأول ظاهري في الأندلس دافع عن مذهبه ودعى إليه بحماس هو منذر بن سعيد البكوطي (المتوفى سنة ٣٥٥ هـ / ٩٦٦ م) .

ويعتمد المذهب الظاهري على ظاهر الكتاب والسنة وكذلك إجماع الصحابة ، وهو ينكر القياس ويبطله^(٥) ؛ وهذا يفتح باب الإجتهد - بشروطه - وعلى مصراعيه^(٦) . وكان ابن حزم

(١) بالثبنا ، ص ٢١٥ ؛ الأفغاني ، ٣٢ - ٣٤ .

(٢) أبو زهرة ، ص ٣٦ ؛ خليفة ، ص ١١٤ .

(٣) المقري ، نفح الطيب ، ٢٨٣/٢ . سار أهل الأندلس أولاً على مذهب الأوزاعي ثم تحولوا الى المالكي (النفح ، ٢١٤/٤) ؛ كما كان بعضهم شافعيًا وبعض آخر على المذهب الظاهري .

(٤) الأفغاني ، ص ٦١ .

(٥) أبو زهرة ، ص ٢٦١ ، ٢٧٥ ، ٤١٢ .

(٦) أبو زهرة ، ص ٢٧٥ وبعدها .

إمام هذا المذهب في الأندلس بل أصبح مستقل التفكير غير تابع فيه لداود الأصبهاني ، وقد دافع عنه وحمل رأيته ، وهو الذي يقول :

ألم ترَ أني ظاهريٌّ وأنني
على ما أرى حتى يقومَ دليلُ

ولقد توسّع ابن حزم وتعمق في هذا المذهب وأضاف إليه كثيراً من الأصول (١) ، حتى غدت له طريقته الخاصة وأصبحت هذه الطريقة -- أو قل هذا المذهب -- جديداً . وكان من أتباعه بالأندلس جماعة كبيرة عُرفت بـ « الحزمية » (٢) ، ومنها صاعد الأندلسي (تلميذه) ؛ ومال إليه محمد بن تومرت مهدي الموحدين . ولكن بمرور الزمن قل أتباعه ثم انعدموا .

أدبه وبيانه

كان أدبه -- وخاصة نثره -- في مستوى عال ، وذلك واضح في كتبه كافة وعلى الخصوص كتابه « طوق الحمامة » الذي يظهر فيه ابن حزم شاعراً ناثراً من الطبقة العالية ، كما يظهر ذلك من

(١) ابن بسام ، الذخيرة ، ١٤١/١/١ .

(٢) الزرّكلي ، الأعلام ، ٥٩/٥ .

رسالاته المتعددة التي تنقسم بالأدب الرفيع وتدل - مع غيرها - على قابلية فذة في هذا الميدان . ومعروف أن ابن حزم يقول الشعر على البديهة مرتجلاً . وقد ذكر ذلك تلميذه (الحُمَيْدِي) في جَذْوَتِهِ قَائِلًا : « وكان له في الآداب والشعر نَفْسٌ واسعة وباع طويل ، وما رأيتُ مَنْ يقول الشعر على البديهة أسرع منه وشعره كثير ، وقد جمعناه على حروف المعجم ^(١) » .

ونجد أمثلة كثيرة من شعره متفرقة في كتبه ورسائله ، وليس ما وصلنا منه هو كل ما قاله من الشعر . ومن القصائد التي قالها إرتجالاً دفاعاً عن الإسلام قصيدة تعدادها ستة وثلاثون ومئة بيت ^(٢) ، مبدؤها :

مِنَ الْمُحْتَمَى لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِ
وَدِينِ رَسُولِ اللَّهِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ

مُحَمَّدٍ الْهَادِي إِلَى النَّاسِ بِالتَّقَى
وَبِالرُّشْدِ وَالْإِسْلَامِ أَفْضَلُ قَادِمٍ

عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ السَّلَامُ مُرَدِّدًا
إِلَى أَنْ يُوَافِيَ الْبَعْثَ كُلُّ الْعَالَمِ

(١) ص ٢٩١ .

(٢) خليفة ، ص ٢٥١ .

ومنها :

ملوك جرى بالنصر طائرُ سعدهم
فأهلاً بماضٍ منهمُ وبقِـّـادِم

محلّتهم في مسجد القدس أو لدى
منازل بغداد محل الأكارم

فأهلاً وسهلاً ثم نعمى ومرحباً
بهم خيار سالفين أقـّـادِم

هم نصروا الإسلام نصراً مؤزراً
وهم فتحو البلدان فتح المـّـراغـم

رويداً فوعد الله بالصدق وارد
بتجريع أهل الكفر طعم العـّـلاقـم

وصدق رسالات الذي جاء بالهدى
محمد الآتي بدفع المظالم

وأذعنت الأملاك طوعاً لدينه
ببرهان صدق ظاهر في المـّـواسـم

فقير وحيد لم تُعنه عشيرة
ولا دفعوا عنه شتيمة شاتم

ولا عنده مال عتيـد لناصر
ولا دفع مرهوب ولا لمسالـم

ولا وعد الأنصار دنيا تخصهم
بلى ، كان معصوماً لأعظم عاصم

وكم آية أبدى النبي محمد
وكم علم أبداه للشرك حاطم

تساوى جميعُ الناس في نصر حقه
فللكل من إعظامه حال خادم

فعرّب وأحبّوش وترك وبربر
وكرد بهم قد فاز قدح المساهم

وجاء بما تقضي العقول بصدقه
ولا كدعاو غير ذات قوائم

عليه سلام الله ما ذر شارق
يعاقبه ظماء أسحم غائم

ولابن حزم الفقيه والأديب جانب آخر أدلى فيه بدلوه هو
الحب العفيف الذي لا يقوم إلا على الشرف والعفة ولا يرضى

بالخلوة . فيحدثنا في كتابه « طوق الحمامة » عن حبه ومعاناته في فترة شبابه وكيف حافظ على عفقه خلال ذلك كله ولم يكن له من واق غير دينه ^(١) . فيروي لنا بعض القصص منها قصة « نعيم » التي « كانت أمنية المُتَمَنِّي وغاية الحسن خلقاً وخلقاً وموافقة لي وكنتُ أبا عُذْرَها ، وكنا قد تكافأنا المودة » ^(٢) .

تعلقه بموطنه

أحب ابن حزم وطنه « الأندلس » حباً جماً وتعلّق به أشد تعلق وفاخر بأنه موطن للإسلام تجلّت فيه حضارته . وكان يتصدى للرد على كل من إنتقص منه ، بأسلوب علمي نزيه يقوم على الحجة المقنعة . ورسالته في ذكر « فضل الأندلس وذكر رجالها » معروفة ^(٣) . وفيها يدافع عن أهل الأندلس وبين سبقهم في العلم والفضل . وخلال ذلك يستعمل عبارات تدل على الشعور بالغيرة الشديدة والإرتباط الوثيق ، تعابير مثل :

(١) راجع المقال السابق .

(٢) طوق الحمامة ، ص ٩١ .

(٣) أوردها المقسّري ، نفح الطيب ، ١٥١/٤ - ١٧٠ .

بلدنا ، أندلسنا ، إقليمتنا .

وإذا كان ابن حزم قد تضايق من عدم تقدير بعض مواطنيه له ومن آذوه وأنكروا فضله وأنه ربما 'عرف قدره لو كان في بلد آخر ، في مثل قوله :

أنا الشمس في جو العلوم منيرةٌ
ولكن عيي أن مَطْلَعِي الغربُ

ولو أنني من جانب الشرق طالعٌ
لجدُّ على ما ضاع من ذكرى النهب

ولي نحو أكناف العراق صبايةٌ
ولا غرو أن يستوحش الكَلِفُ الصب

فإن يُنْزِلَ الرحمن رَحْلِي بينهم
فحينئذٍ يبدو التأسف والكرب

فكم قائلٍ أغفلته وهو حاضر
وأطلب ما عنه تجيء به الكُتُبُ

هنالك يُدْرَى أن للبعد قصةً
وأن كساد العلم آفته القرب

لكنه على الرغم من ذلك — وهذا دليل تعلقه بأندلسه —

قد ظل يعتز بأنه من أرض الأندلس ، وبكل صراحة ،
يقول :

ويا جوهر الصين 'سحقاً فقد
غَنَيْتُ بياقوتةِ الأندلس

وفاته

توفي ابن حزم (وقد بلغ من العمر إثنتين وسبعين سنة) في
قرية « مُنْتِ لِيَشَمُ Casa Montija » من كورة لَبْلَة
Niebla ، في ٢٨ شعبان سنة ٤٥٦ هـ / ١٥ آب (أغسطس)
١٠٦٣ م^(١). قضاها حياة حافلة بالحركة والنشاط والإنتاج العلمي
الغزير . وكان من أكثر خلق الله تأليفاً ، وعاش خلالها صادق
الإيمان صافي العقيدة مستقيم السيرة مهتدياً بتعاليم القرآن الكريم
سائراً تحت ظلاله 'محافظاً عليه في السر والعلانية مقتدياً بسيرة
الرسول الأمين ﷺ ، « وكان يؤمن بأن سلامة العقيدة والشرف
فوق الحياة نفسها »^(٢) .

ولا شك في أن كثيراً من آراء وبعض كتب هذا الإمام
الغد قد انتقلت منذ زمن مبكر الى الغرب ومنها أفاد كبير

(١) عبد الواحد المراكشي ، المُعْجَب ، ص ٩٦ .

(٢) بالنبيا ، ص ٢١٦ .

الفائدة (١) . كما أن ابن رشد الحفيد (وأثره في الفكر الأوربي
معروف) كان متأثراً بابن حزم .

رحمك الله يا أبا محمد ، فقد كنت نَسِيحَ وَحْدِكَ ،
كنتَ إحدى الزهرات التي انشقت عنها أرض البطولة أرض
الأندلس المجيدة .

النكبات طريق النصر *

- ١ -

يُكَادُ لا يخلو تاريخُ أُمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ، في أيِّ زَمَانٍ ومكانٍ،
مِنَ نَكَسَاتٍ وهزائمٍ أصَابَتْهَا خِلالَ حَيَاتِهَا . ولا يُقَلِّلُ مِنْ
مَكَانَةِ الأُمَّةِ الحَيَّةِ هَزِيمَةُ لِحِقَّتِهَا أو خَسَارَةُ حَلَّتْ بِهَا فِي
مَعْرَكَةٍ مِنْ مَعَارِكِهَا ، حَرْبِيَّةٌ كَانَتْ أَوْ غَيْرَ حَرْبِيَّةٍ .

* هو مقالٌ مُسَلَّسٌ « بعد فضيحة حزيران (يونيو) ١٩٦٧ »، نُشِرَتْ
هذه الحلقة (الأولى) في جريدة « المنار » البغدادية ، العدد : ٣٧٧٧/٤٠ ،
٢٧ ربيع الأول ١٣٨٧/٥ تموز (يوليو) ١٩٦٧ .

نماذج بطولية من تاريخنا المجيد

إِنَّ الْأُمَّةَ الْحَيَّةَ تَعْمَلُ لِلْقِيَامِ تَلَوَّ كُلٌّ سَقْنَةً لَتَسْتَعِدَّ ثَانِيَةً وَثَالِثَةً لِّلْمَسِيرِ فِي مَوَكِبِ الْإِنْسَانِ ، لِمُشَارَكَةِ فِي الْبِنَاءِ الْحَضَارِيِّ وَتَعْمِيرِ الْأَرْضِ بِالْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ لِمُصَالِحِهَا وَصَالِحِ الْآخَرِينَ . وَالْأُمَّةُ الْأَصِيلَةُ هِيَ الَّتِي تَعْرِفُ وَتَجِدُ الْإِسْتِفَادَةَ مِنَ الْهَنْ ، الَّتِي تُشِيرُ إِلَى جَوَانِبِ النِّقْصِ لِتُتِمِّمَهَا ، وَإِلَى أَسْبَابِ الْهَزِيمَةِ فَتُزِيلَهَا . وَهَذَا هُوَ الْمَعْنَى الَّتِي دَرَجْنَا عَلَيْهِ وَشَاهَدْنَا لَهُ الْأَمْثَلَةُ الْكَثِيرَةُ .

إِنَّ الْهَنْ تَجَوَّهَرُ وَتَنْقِي الْأُمَّةَ الْعَزِيزَةَ وَتُبْنِي عِزَائِمَهَا مِنْ جَدِيدٍ لَتَخُوضَ كُلَّ مَعْرَكَةٍ قَادِمَةٍ بِهَيْمَةٍ أَعْلَى وَعَقْلِيَّةٍ أَوْعَى .

تاريخ بطولي طويل

تاريخنا الإسلامي الطويل مليء بالانتصارات الحاسمة البارة التي حققها المسلمون ، بروعة وتفوق ، في كافة ميادين الحياة الإنسانية والعسكرية سواء بسواء .

وعلى الرغم من ذلك فإن هذا التاريخ ليس 'خلوًا' من أية 'نكسة' ، بل إن بعض هذه الانتكاسات حدثت يوم كان المسلمون في أوج قوتهم . وما خبر معركتي 'أحد' و'حنين' عنا ببعيد . لكن المهم أن المسلمين لم يستسلموا للهزيمة بل وعوا أسبابها فزادهم ذلك قوة وبصيرة وانطلاقاً جديداً لإحراز الانتصارات المتتالية ، ولذلك فمثل هذه الانتكاسات كانت مؤقته .

ولدينا معارك حربية كثيرة كانت مدّاً قوياً بعد جزر شديد وفي بيت المقدس بالذات ! ألم يحتله الصليبيون 'قراية' تسعين عاماً وحرّره بعد ذلك بطل الإسلام صلاح الدين الأيوبي ؟

إفريقيا والأندلس

وأروي هنا عدة أمثلة من تاريخنا الإسلامي في الغرب ، وفي الأندلس بصورة خاصة ، بعضها معروف ومشهور .

تولى 'عقبة بن نافع الفهري' - للمرة الثانية - حكم إفريقيا^(١) والمغرب في سنة ٦٢ هـ / ٦٨٢ م ، واتخذ مدينة القيروان عاصمة له . وقاد 'عقبة' عمليات الفتوح الإسلامية الحثيرة حتى وصل إلى طنجة على ساحل المحيط الأطلسي . وفي طريق عودته إلى تونس قام 'كسيلة' (أو 'كسيلنة') بن 'لمزم' ،

(١) « إفريقيا » تعني في اصطلاح المؤرخين المسلمين القُطُرَ التونسي حالياً ، ربما مضافاً إليها بعض المناطق المجاورة .

أحد زعماء البربر البرانس ، بثورة كبيرة وقاتله عُقْبَة ، وكان في خمسة آلاف من الفرسان، لكن كُسَيْلَة انتصر على المسلمين ، رغم استبسالهم . وكان الإستشهاد نصيب أكثرهم حتى عُقْبَة نفسه . وقويت شوكة كُسَيْلَة واحتل مدينة القَيْرَوَان ، وغدا أميراً على تونس والمغرب ، واضطر زهير بن قيس البكوي (خَلَف عُقْبَة) إلى الإنسحاب من بَرْقَة في ليبيا ، وكان كُسَيْلَة قد زاد قوة وأتباعاً . وبدأ المسلمون الإستعداد للملاقاة كُسَيْلَة بقوته المتزايدة ، ودارت معارك مُرَوَّعة بين الطرفين ، نجد تفصيلاتها في كتب التاريخ ^(١) ، انتهت بقتل كُسَيْلَة وانتصار المسلمين وعادت إفريقيا والمغرب إلى دائرة الإسلام ، وغدا أهل الشمال الإفريقي من البربر وغيرهم من الناس المخلصين للإسلام وعقيدته بل ومن أحرصهم على نشره والجهاد في سبيله ، وحملة طارق بن زياد لفتح الأندلس خير شاهد ومبين.

معركة بلاط الشهداء

وفي الأندلس (إسبانيا والبرتغال اليوم) بعد أن إفتتح السَّمْنَح بن مالك الخوَلاني ، والي الأندلس ، سبتمانية Septimania في جنوب فرنسا وأقام بها حكومة إسلامية ^(٢) حدثت معركة

(١) ابن عذاري ، البيان المُفْتَرَب ، ٢٨/١ - ٣٣ ، شيت خطاب .
قادة فتح المغرب العربي ، ١١١/١ .

(٢) عَنان ، دولة الاسلام في الأندلس ، ٨٠/١ .

مع أودو Eudes حاكم (دوق) أكييتانيا Duke of Aquitaine
 وَقْتَلَتْ زَهْرَةُ الْجَيْشِ ، كَانَ السَّمْحُ بَيْنَهُمْ ، سَنَةَ ١٠٢ هـ /
 ٧٢١ م . لَكِنْ هَذَا لَمْ يُثْنِ الْمُسْلِمِينَ عَنِ التَّقَدُّمِ بِفَتْوحَاتِهِمْ إِلَى
 دَاخِلِ الْأَرْضِ الْفَرَنْسِيَّةِ بَعْدَ أَنْ لَسَمُوا شَعَثَهُمْ وَأَعَادُوا بِنَاءَ
 صُفُوفِهِمْ .

وَالآنَ إِلَى ذِكْرِ إِحْدَى الْمَعَارِكِ الْمَشْهُورَةِ وَالَّتِي اعْتَبِرَتْ مِنْ
 الْمَعَارِكِ الْهَامَةِ فِي التَّارِيخِ ، تِلْكَ هِيَ مَعْرَكَةُ « بَلَاطُ الشَّهْدَاءِ »
 الَّتِي حَدَثَتْ فِي فَرَنْسَا عِنْدَ فَرْعَيْنِ لِنَهْرِ الْوَارِ Loire قَرِبَ مَدِينَةِ
 تَوْر Tours حَوالِي ٧٠ كَمِ جَنُوبَ بَارِيْسِ . وَسُمِّيَتْ الْمَعْرَكَةُ بِهَذَا
 الْاسْمِ « بَلَاطُ الشَّهْدَاءِ » لِكَثْرَةِ مَا سَقَطَ فِيهَا مِنَ الشَّهْدَاءِ . كَانَ
 الْمُسْلِمُونَ بِقِيَادَةِ الْوَالِيِّ الْأَنْدَلُسِيِّ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْغَافِقِيِّ الْمَعْرُوفِ
 بِبَطُولَتِهِ الْفَائِقَةِ . وَكَانَ الْجَيْشُ الْفَرَنْسَاجِيُّ ، وَقَدْ تَجَمَّعَ مِنْ
 عِدَّةِ مَمَالِكِ أَوْرُوبِيَّةٍ ، بِقِيَادَةِ شَارْلِ مَارْتَلِ Charles Martel
 الْمَعْرُوفِ بِـ « شَارْلِ الْمَطْرُوقَةِ » ، يَفُوقَ جَيْشَ الْمُسْلِمِينَ عَدًّا
 وَرَبْمَا عُدَّةً أَيْضًا ، وَدَارَتْ الْمَعْرَكَةُ حَامِيَةً هُزِمَ فِيهَا الْمُسْلِمُونَ
 وَقُتِلَ فِيهَا كَثِيرٌ فَكَانَ مِنْ بَيْنِهِمُ الْغَافِقِيُّ الْقَائِدُ .

الْهَزِيمَةُ وَالنَّصْرُ

وَلَكِنْ هَذِهِ الْهَزِيمَةُ لَمْ تَزْعِزْ الْعِزَائِمَ الْمُؤْمِنَةَ بِرَبِّهَا وَعَقِيدَتَهَا .
 وَلَمَّا أَعَادَ الْمُسْلِمُونَ جَمْعَ صُفُوفِهِمْ أَعَادُوا الْكِسْرَةَ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ
 وَبَقُوا يَسِيطِرُونَ - لِفَتْرَةٍ - عَلَى عِدَّةِ مَنَاطِقٍ فِي الْجَنُوبِ الْفَرَنْسِيِّ .

وفي بعض الأحيان إمتد نشاط الأندلسيين حتى سويسرا وإيطاليا .

وإذا كان المسلمون في الأندلس لم يستطيعوا الكرة مباشرة بعد بلاط الشهداء ، وبصورة أقوى ، فلم يكن سبب ذلك يمكن في ذهاب الإيمان والقدرة وانهيار العزيمة بعد الهزيمة بل كانت هناك أسباب أخرى تتعلق بالظروف الجديدة التي حلت بالمجتمع الإسلامي في الأندلس ، كما إن هزيمتهم نفسها في المعركة كانت تعود - لحد كبير - إلى بعض الأسباب المتعلقة بالبناء العسكري وربما إلى الظروف الطبيعية للأرض التي كانوا يحاربون فيها في تلك المعركة .



النكبات طريق النصر *

٢

تَمْنَحُ العقيدة معتنقيها من القوة بقدر ما تمتلك منها . ولا بد لهذه الحياة من عقيدة قوية تُطهرها من كل رجس وتُعَمِّرُها بالحق والعدل والخير .

ولا عقيدة أقوى من الاسلام وأملك منه لهذه الصفات فلا يمكن البتة أن تقعد بأمة نكبة أو تفت في عضدها نكسة ما دامت مؤمنة بكل كيائها بهذه العقيدة التي منها استمدت وجودها وبنورها اهدت .

* الحلقة الثانية ، نُشرت في جريدة « المنار » البغدادية ، العدد : ٣٨٠٨ / ٧٣ ، ٣٠ ربيع الثاني ١٣٨٧ / ٧ آب (اغسطس) ١٩٦٧ .

عندما هاجم القراصنة شواطئ الأندلس

إن الانتصارات والإنجازات الكثيرة التي حققها المسلمون - في كل الميادين - كانت ثمرة إيمانهم بالمُثل الإسلامية الرفيعة ، ولا تُشير فترات الهبوط - بأنواعه ومُدَّه - إلاّ إلى الانحراف المتجانس عن هذه المثل .

والنكسات ، التي ذكَّرتُ في الحلقة السابقة طرفاً منها ، كانت أولاً نكسة في النفس أو واقع المجتمع . وكل الأمثلة التي أوردتها كانت أسبابها طارئة أدَّتْ إلى إنكسار إستطاع المسلمون ملافاة عوامله بسهولة .

معركة بلاط الشهداء

ومن هذه الأمثلة ما حدث في المجتمع في الأندلس تِلَوّ معركة « بلاط الشهداء » التي قد لا تخلو هي نفسها من هذه العوامل . لقد دارت رحى هذه المعركة - التي مرّ ذكرها - مع جيوش الفِرَنْجَة التي كانت تفوق الجيش الاسلامي كثرة

وُعدّة . فإن النزاعات الداخلية في الأندلس أثّرت في موجة التقدم الإسلامي داخل أوروبا . ولا شك إنه لو قُدّر لموجة الفتح الإسلامي الإستمرار في هذه المعركة وبعدها لتغير تاريخ الإسلام في تلك البقاع .

قِرَاصِنَةُ الْبَحَارِ

ولعله من المناسب الآن أن نقفز معاً - من تاريخ هذه المعركة - قفزة زمنية نطوي فيها قرناً من الأعوام أو يزيد . وذلك يوم كان عبد الرحمن الأوسط (الثاني) أميراً للأندلس لنشهد لونا آخر من هذه الأحداث . إعتداء مفاجيء خاطف أخذت فيه الأندلس على غرّة . ففي بداية ذي الحِجّة عام ٢٢٩ هـ / أواسط آب (أغسطس) ٨٤٤ م هاجمت جماعة من قِرَاصِنَةِ الْبَحَارِ - ولأول مرة - الشواطىء الغربيّة . قام هؤلاء القُرْصَان من النورمان الدنماركيين (Vikings (Norsemen) بهجومهم على الأندلس ، بعدما سمعوا بخيراتهم وثرواتهم ، في ثمانين مَرَكَباً من مراكبهم الطويلة الرفيعة (المُدَبَّبَة) خفيفة الحركة « كأنما ملأت البحر طيراً » جُوناً ، كما ملأت القلوب سَجُوناً وسَجُوناً . « (١) كما وصفها ابن عذاري المُراكشي في البيان المُغَرَّب (٢) . وكانت لِشَبُونَة (Lisbon (Lisboa) عاصمة

(١) جُون (مفرداً : جُون) : السوداء المُشْرِبة بالحمرّة .

(٢) ٨٧/٢ .

البرقغال حالياً) أولَ مدينة أندلسية تشهَدُ هُجُومَ النهب
والخراب النورماني ، واستمروا منحدرين مع الشاطيء حتى
إشبيلية (Seville (Sevilla كما هاجموا مدناً أخرى وقُتِلَ
من المسلمين كثير .

الأندلس تستيقظ

ولكن الأندلس أفاقَت من الضربة العنيفة المفاجئة ، غير
المتكافئة ، حيث كان النورمان متفوقين في القوة البحرية 'عدة'
ومهارة واستطاعت الأندلس أن تَرُدَّ هؤلاء ، فاستُدِّعِيَتْ كُلُّ
القابليات وَتَفَرَّ المسلمون خِفَافاً وَثِقَالاً . ودارت بعد ذلك
معارك عديدة انتهت بانتصار الأندلس . وكان من جملة الإجراءات
إستدعاءُ قوة من شمال الأندلس 'مَدَرَبَةٍ' على حرب العصابات
والضَرْبَات الخفيفة السريعة ، الأسلوب الأكثر ملائمة لحرب
هؤلاء الغزاة . فاستدعى الأمير 'عبدُ الرحمن الأوسط' موسى
ابن موسى القَسَوِي الذي حضر مع قوة ضاربة إلى العاصمة
قرطبة ؛ وعقد ، مع القادة الآخرين ، مؤتمراً عسكرياً دُرِسَتْ
فيه الاحوال والظروف والإمكانات فوضعت الخطة المحكَّمة ،
بالتشاور في ضوء كل ذلك .

كمين في كنيسة

ولما كان النورمان يخرجون كل يوم إلى بَسَائِطِ إشبيلية في

جماعات هجومية فإن موسى سار بقواته ليلاً مختفياً قريباً من تلك المناطق ووضع كميناً في كنيسة إحدى القرى القريبة من إشبيلية. وما أن انبجج الصباح حتى خرج الغزاة إلى أهدافهم، فأشار مَنْ في المرصد (الكمين) إلى موسى بقدومهم وانتظر موسى حتى مرّت قوات العدو وبعدت قليلاً ؛ فحمل المسلمون عليهم وقطعوا ما بينهم وبين المدينة وحاصروا من كل مكان وأبیدت القوة النورمانية ^(١) . كما أرسلت قوات أندلسية في نفس الوقت لحماية إشبيلية التي كان العدو قد احتلها . ولما رأى هؤلاء أنه قد أحيط بهم من كل جانب هربوا إلى مراكزهم وطلبوا إلى المسلمين الكف عنهم . وهكذا قُتِلَ كثير منهم كما أُحرق من سفنهم العديد ورُدُّوا خاسرين .

لكن هذه الهجومات لم تفته بهذا الشكل فقط بل إنها لفتت أنظار السلطة الأندلسية إلى ناحيتين مهمتين استفادوا من هذه المعركة .

الأولى : تحصين المدن الساحلية لدرء أي هجوم مفاجيء مثل هذا أو غيره .

الثانية : إنشاء قوة بحرية أندلسية أكثر كفاية ، مع تطوير فن بناء سفن الأسطول الأندلسي .

(١) ابن القوطية ، تاريخ إفتتاح الأندلس ، ص ٨٥ .

ولذلك فحينما أعاد النورمان الكرة على الاندلس في سنة ٨٢٤٥/ ٨٥٩ م بعد خمس عشرة سنة من هجومهم الأول السابق، لم يلاقوا غير الدمار والهلاك . فهكذا كانت النكبة مفيدة ودرسا أشار إلى موطن النقص ومواضع الخطر التي أُكْمِلَتْ وأُخِذَتْ لها كل الإستعدادات للدفاع عن البلاد وحفظ كيان الأمة وصيانة كرامتها .

بلغت الاندلس أيام خلافتها في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي قمة الحضارة في العالم. وفي أيام الخليفة العظيم عبدالرحمن الثالث (الناصر لدين الله) غدت الأندلس مقصداً ، إليها يفد طلاب العلم مثلما يفد السفراء والملوك من كل الأمم طالبين صداقتها حريصين على عقد الصلوات مع الاندلس 'مقدمين فروض الرضا أو الخضوع . فكانت دولة الاسلام هناك أول قوة حضارية وسياسية في العالم .

كانت في الشمال الاسباني ثلاث دول مسيحية (ليون Leon) وقشتالة (Castille) ونافار (Navarre) سلكت الأندلس معها سياسة التعايش السلمي رغم التفاوت في القوة بين دولة الاندلس وهذه الدول ، حتى أن حكام دول الشمال الإسباني كانوا يُحْكَمُونَ السلطات الاندلسية في خصوصاتهم ، ورغم ذلك فإن السلطات الإسلامية في الاندلس لم تستغل ضعف هذه الدول بل رَغِبَتْ في عيش سلمي دائم .

حلف العدوان

وعلى حين غرة وُلِدَ حلف للعدوان على الاندلس من الدول الإسبانية في الشمال ، بزعامة راميرو الثاني Ramiro II ملك ليون ، محور هذا التحالف العدواني . فجهز الخليفة عبدالرحمن الناصر جيشاً ضخمًا وسار به إلى شمال الاندلس للقاء المتحالفين وتأديبهم . وكان أحد حكام الولايات الشمالية الاندلسية الحائن أمية بن إسحاق قد لجأ إلى راميرو الثاني ووضع نفسه تحت تصرفه ، حتى علست مكانة أمية عنده ، فقربته واستوزره (١) . وكان أمية يقدم لراميرو في هذه المعركة خبرته العسكرية ويدله على عورات إخوانه المسلمين ويقاثل معه ضدهم . وتقدم الناصر بجيشه ، الذي قدرته بعض الروايات قرابة مئة ألف مقاتل . ولوجود بعض العوامل داخل الجيش الاندلسي التي كانت تقعت في قواه خسر الناصر هذه المعركة وتراجع المسلمون في اليوم الثالث من المعركة (بعد أن بدا لهم النصر) وتساقطوا في خندق عميق ، كان قريباً من ميدان المعركة ، وسميت المعركة « معركة الخندق » . وقتل منهم آلاف كثيرة أوصلها البعض إلى أربعين ألفاً أو يزيد . وكان ذلك في شوال ٣٢٧ هـ / آب (أغسطس) ٩٣٩ م . وكان الناصر - كعادته - قائد هذه المعركة التي ضاع فيها مصحفه ودرعه ، ونجا من الموت بأعجوبة .

(١) البكري ، جغرافية الأندلس وأوروبا ، ص ٧٥ - ٧٨ ؛ عنان ،

دولة الإسلام في الأندلس ، ٢/ ٣٨٧ - ٣٩٠ .

وكانت معركة الخندق هي الوحيدة التي خسرها الناصر طوال حكمه البالغ خمسين سنة (٣٠٠-٣٥٠ هـ / ٩١٢-٩٦١ م) .

وكان من أسباب هزيمة المسلمين في هذه المعركة طائفة من جند الناصر لدين الله حَسَدَتْهُ عَلَى مَا هَيَّأَ اللَّهُ لَهُ مِنَ الصُّنْعِ وَلَمْ تُتَنَاصَحْهُ فِي الْحَرْبِ حَقَّ النَّصِيحِ فَتَحَوَّلَتْ عَنْهُ وَقَدْ ثَنَّتْ أَعْنَئَهُ خِيَلُهَا فَاخْتَلَتْ صُفُوفَ الْقِتَالِ ، كَمَا يَقُولُ ابْنُ الْخَطِيبِ فِي كِتَابِهِ « أَعْمَالُ الْأَعْدَامِ » (١) .

لكن خسارة المسلمين في هذه المعركة كانت نتيجة عوامل طارئة استطاع الناصر معالجتها والقضاء عليها فكان النصر للمسلمين بعد ذلك في كافة المعارك اللاحقة كما كان من قبل في التي سبقتها. بلغت قوة الأندلس بعدها أن ملوك الشمال الاسباني وغيرهم من ملوك الدنيا كانت تأتي وفودها متسابقة تملأ الدروب إلى قرطبة طارقة باب الخلافة الإسلامية في الأندلسية طالبة صداقتها أو مساعدتها . وأن مصادر التاريخ الأندلسي قد حَفِظَتْ جَمْلَةً مِنْ هَذِهِ الْمَشَاهِدِ الَّتِي تُشِيرُ إِلَى الْقُوَّةِ وَالْمَنْعَةِ الَّتِي بِهَا حَقَّقَ الْمُسْلِمُونَ النَّصْرَ وَالتَّفُوقَ .

فِتْيَةُ لَشَبُونَةِ الْمَغْرُورُونَ

الحضارة الإسلامية مليئة بالصفحات الناصعة ، وما أكثر ما فيها من مجهول يقتضي الجهود الضخمة لإخراجه للنور ، وهذا الموضوع ما يزال جديداً على البحث والدراسة . وقد شملت هذه الحضارة كافة الجوانب الحياتية التي تدل على تقدم الإنسان ، مادياً وروحياً . وأوضح ما يكون ذلك في الحضارة الأندلسية ذلك المعين الفياض الذي ارتوى الغرب منه لقرون وأفاد أكبر فائدة في بناء حضارته الحالية ومَهَّدَ لكثير مما حققه .

وللنشاط الجغرافي نصيب وافر في هذه الحضارة ، وإسهام المسلمين الكبير في هذا العلم معروف ، بما في ذلك الكشف الجغرافية التي سبق بها المسلمون غيرهم أو تحطيمهم لبعض الآراء الجغرافية التي غدت منذ قرون - في صحتها - كالعقائد . فجهودهم الجغرافية البرية والنهرية منها والبحرية عظيمة صادقة قادت الى كثير من الكشف الحديثة ، والأمثلة على ذلك كثيرة أي كثرة .

فسليل الأسود شهاب الدين أحمد بن ماجد (المتوفى بعد سنة ٩٠٤ هـ / ١٤٩٨ م) يعتبر من كبار البحارة المسلمين ومن العلماء الأوائل في فن الملاحة البحرية . فله ما يقارب الأربعين مؤلفاً في هذا الفن ، تقوم على التجربة والخبرة إضافة الى الدراسة والملاحظة ، لذلك لقب بـ «أسد البحر» . ولقد كان البحارة في البحر الأحمر والمحيط الهندي حتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي ، قبل أن يبحروا ، يقرأون الفاتحة لروح الشيخ ابن ماجد إعترافاً بفضل^(١)ه . وهو مخترع الإبرة المغناطيسية وهو الذي أطلع فاسكو دي غاما Vasco da Gama الرحالة البرتغالي (الذي ينسب إليه اكتشاف طريق جديد للهند) على بعض الخرائط والمعلومات وهو الذي كان دليل دي غاما (الذي نعرف عنه أكثر مما نعرف عن ابن ماجد) وقاد سفينته في سنة ٩٠٤ هـ / ١٤٩٨ م من مالندي Malindi في كينيا Kenya على ساحل إفريقيا الشرقية الى كلكتا Calcutta في الهند . وكثير من الذين يتحدثون عن اكتشاف هذا الطريق الجديد الى الهند يذكرون دي غاما وينسبونه إليه لكنهم ينسون أو يجهلون « المعلم » أحمد بن ماجد الذي هو أخرى بلقب مكتشف طريق الهند لا فاسكو دي غاما . ومن يدري فلولا الشيخ ابن ماجد لتأخر هذا الكشف السنوات الطوال ولما كان لدي غاما مثل هذا الشأن .

(١) الزركلي ، الأعلام ، ١ / ١٩١ .

ولا يستبعد أن الجغرافيين المسلمين قد تخيلوا وجود أماكن
أو قارات أخرى كأمریکا قبل اكتشافها بقرن ونصف . فقد
ذكر ابن فضل الله العمري المتوفى سنة ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م نقلاً
عن أبي الثناء الأصفهاني قوله : « لا أمتنع أن يكون ما إنكشف
عنه الماء من الأرض من جهتنا منكشفاً من الجهة الأخرى وإذا لم
أمتنع أن يكون منكشفاً من تلك الجهة لا أمتنع أن يكون به
من الحيوان والنبات والمعادن مثلاً عندنا أو من أنواع
وأجناس أخرى » (١) . وربما كانت لهم محاولات في هذا
الشأن ، وهذا ما دفع بعض الباحثين إلى القول بأن
المسلمين هم مكتشفو أمريكا قبل كريستوف كولومبوس

Christopher Columbus (Sp . Cristobal Colon)

بزم طويل ، خاصة بعد ثبات إنتقال نباتات إلى العالم الجديد لم
تكن معروفة فيه من قبل (٢) . وعلى كل حال فإن كولومبوس
الإيطالي لم يتخيل وجود أمريكا بل تخيل فقط وجود طريق
جديد يوصل إلى الهند عن طريق الغرب فاكشف العالم الجديد
عن غير قصد منه سنة ٨٩٨ هـ / ١٤٩٢ م . ولا بد أنه اطلع على
مناشط المسلمين وتجاربهم وأفاد من دراسات الجغرافيين الأندلسيين
كأبي عبيد البكري (المتوفى ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م) والإدريسي

(١) ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار ، ٣١/١ .

(٢) عاشور ، المدنية الإسلامية ، ص ١٢٢ - ٣ : بإمات ، دور
المسلمين ، ص ٧٨ .

(المتوفى سنة ٥٦٠ هـ / ١١٦٥ م) ومن خرائطه والوسائل
الملاحية الأخرى كما لا بد أنه كانت على علم بقصة إستكشافية
بحرية قام بها بعض مسلمي الأندلس ، وتعتبر هذه القصة طريفة
غاية الطرافة . ومن عجب إننا لا نجد لهذه القصة ذكراً في الكتب
التي وصلتنا إلا عند الشريف الإدريسي في كتابه « نزهة المشتاق
في إختراق الآفاق » (١) .

وخلاصة هذه القصة الطريفة أنه في القرن الثالث الهجري
قامت جماعة أندلسية بمخاطرة جريئة لكشف سر المحيط
الأطلسي الغامض وتبديد المخاوف التي بالغ القدماء في تجسيمها .

ففي مدينة لشبونة (عاصمة البرتغال حالياً] ورد رسمها في
المصادر الإندلسية : أَسْبُونَة أو الْأَسْبُونَة [) إجتمع ثمانية
رجال مُعَرَّرِينَ - أو هكذا أطلق عليهم - واتفقوا على خوض
بجر الظلمات (المحيط الأطلسي) ليعرفوا ما فيه وإلى أين
انتهأؤه ، فأنشأوا مركباً حمالاً وملأوه من الزاد والماء مؤونة
تكفيهم لأشهر . فركبوا البحر في أول هبوب الريح الشرقية
وبعد أحد عشر يوماً من إبحارهم وصلوا مكاناً عنيف الموج كدر
الروائح كثير الصعوبات قليل الضوء حتى أيقنوا بالموت ، فغيروا
خط سيرهم إلى الجنوب . وبعد إثني عشر يوماً وصلوا جزيرة

(١) طبعة روما ، ص ١٨٢ - ٤ .

الغنم فنزلوها ووجدوا فيها من الغنم ما لا يحصى ، وهي سارحة
 لا راعي لها ولا ناظر إليها ، كما وجدوا عين ماء جارية وعليها
 شجرة تين بري ، فأخذوا من تلك الغنم وذبحوها ولكنهم وجدوا
 لحمها مرأ فحملوا معهم من جلودها وعادوا الى مراكزهم . ثم
 ساروا في اتجاه الجنوب اثني عشر يوماً حتى لاحت لهم جزيرة
 ذات عمران وحرث . فقصدوا إليها ليروا ما فيها ، فما كان
 غير بعيد حتى أحيط بهم في زوارق هناك فأخذوا وحملوا في
 مراكزهم الى مدينة على ساحل الجزيرة فشاهدوا رجالاً شقراء
 شعورهم وسبطة طوال القامة ولنسائهم جمال عجيب فاعتقلوا
 ثلاثة أيام . وفي اليوم الرابع جاءهم ترجمان الملك ، وكان يعرف
 العربية ، فسألهم عن حالهم ولمّ جاءوا وما بلدهم ؟ فأخبروه
 خبرهم فوعدهم خيراً . وفي اليوم التالي أحضروا بين يدي الملك
 فأعادوا عليه قصتهم فضحك وقال للترجمان : خبرهم أن أبي
 أمر قوماً من عبيده بركوب هذا البحر وأنهم جروا في عرضه
 شهراً إلى أن انقطع عنهم الضوء فانصرفوا من غير جدوى . ثم
 عاد الفتية من عند الملك بعد أن وعدهم بما يطيّب خواطرهم
 ويحملهم على حسن الظن . فصرّفوا إلى موضع حبسهم حتى بدأ
 جري الرياح الغربية فعمّر بهم زورق وعصبت أعينهم وجري
 بهم في البحر مدة ، قال القوم قدرناها ثلاثة أيام ، بليلاتها ، حتى
 جيء بنا الى البر فأخرجنا وكتفنا الى خلف وتركنا بالساحل
 الى أن تضحى النهار وطلعت الشمس ونحن في ضحك وسوء حال
 من شدة الكتاف حتى سمعنا ضوضاء وأصواتاً فصحننا بأجمعنا

فأقبل القوم إلينا وحلوا وثاقنا وأخبرناهم خبرنا ، فقال لنا أحدهم : أتعلمون كم بينكم وبين بلدكم ؟ فقلنا : لا . قال : مسيرة شهرين . فقال زعيمنا : وأسفي ، فسمي المكان الى اليوم (آسفي) ، وهو المرسى الذي في أقصى المغرب .

ويؤخذ من كلام الإدريسي أن هؤلاء الثمانية عادوا إلى لشبونة وسردوا قصتهم على أهلها الذين لم يروا فيهم إلا رجالاً مغرورين وسموا الدرب الذي فيه دورهم بـ «دَرْبُ الْمُغَرَّرِينَ» .

لم يذكر الإدريسي إتجاههم الأول ولذا جعله البعض الى الشمال حتى أصبحوا بمحاذاة إيرلندا ، وجعله المرحوم شكيب أرسلان ^(١) خطأ مستقيماً الى الغرب فوصلوا بعد سفر ، يرجح أنه استمر أكثر مما ذكره الإدريسي ، قريباً لإحدى جزائر المحيط بين أمريكا الشمالية والجنوبية التي بين ١٠ و ٢٧ درجة من العرض الشمالي وبين ٦٢ و ٨٧ درجة من الطول . وهذا أمر يمكن قبوله - رغم عدم استطاعة ترجيحه لحاجته الى أدلة أخرى - حيث أن استعدادهم كان يقصد به الإستمرار في الرحلة في الاتجاه الغربي للأندلس لأشهر عدة ، مع التصميم على المضي في تحقيق الهدف رغم إدراكهم صعوبة المهمة . ولو ثبت أنهم ساروا طيلة إبحارهم في اتجاههم الأول أو استمروا في السير فيه لأطلوا على أمريكا أو وصلوا قريباً منها . والظاهر أنهم

(١) الحلل السندسية ، ٩٢/١ - ٦ .

يئسوا من الوصول إلى البر في ذلك الإتجاه فتحولوا جنوباً حتى جزيرة الغنم ثم عادوا جنوباً إلى الشرق فوصلوا إحدى جزر الخالدات التي تعرف بإسم جزر كناري The Canary Islands ثم وصلوا إلى المغرب . ولعله من الممكن التحقق من وصولهم موضع مدينة « آسفي » إذا حسبنا المسافة التي كان يسيرها من كبهم ومسافة ما بينهما وبين لشبونة . ومن أسف أن الإدريسي لم يذكر لنا كيف عادوا من إفريقيا إلى لشبونة .

وعلى كل حال فقد كان لهذه القصة ، التي لا أشك في واقعيتها ، أثر كبير في تشجيع البحارة البرتغاليين وغيرهم على القيام برحلات إستكشافية . ونظراً لأهميتها قام بعض الأوربيين بوضع مثل هذه القصة في القرن الحادي عشر الميلادي ونسبتها إلى القديس براندان الراهب الإيرلندي الذي عاش في القرن السادس الميلادي فقط (١) .

والقصة بعد ذلك دليل على روح المغامرة المتأصلة في نفوس الرحالة المسلمين وعدم مبالاتهم بالخطر حياً في الكشف عن المجهول . ومن يدري فلعل في تراثنا الزاهر مثيلات لهذه البطولة 'فقدت إلى الأبد فيما 'فقد من المخطوطات ، أو أنها ما تزال في انتظار من يكشف عنها ويخرجها إلى النور ، وكل رجائنا ألا يطول بنا الانتظار .

(١) العبادي ، صور وبحوث ، ص ١٤٩ وبعبدا .

أَسْئَلُ الْحَضَارَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ فِي الْأَنْدَلُسِ

*

وَدَوْرَهَا فِي الْحَضَارَةِ الْأَوْرُوبِيَّةِ

أَسْهَمَتْ أُمَّمٌ كَثِيرَةٌ خِلَالَ التَّارِيخِ فِي بِنَاءِ حَضَارَةِ الْإِنْسَانِ الْحَالِيَةِ وَكَانَ دَوْرُ الْأُمَّةِ الْمُسْلِمَةِ فِي هَذِهِ الْحَضَارَةِ كَبِيرًا. وَالْحَضَارَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ وَلِبَدَةُ التَّعَالِيمِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ النَّزْعَةُ . وَلَيْسَتْ حَضَارَةُ الْإِسْلَامِ غَيْرَ ذَلِكَ الْإِنْتِجَاجِ الْفِكْرِيِّ الْمُتَعَدِّدِ الْإِتْجَاهَاتِ الْوَحْدِ الْرُوحِ وَالْهَدَفِ الَّذِي نَشَأَ فِي ظِلِّ الْإِسْلَامِ وَشَارَكَتْ فِيهِ كُلُّ الْأُمَمِ وَالْأَجْنَاسِ الَّتِي ضَمَّهَا هَذَا الدِّينُ وَرَبَطَ بَيْنَهَا وَكَوَّنَ مِنْهَا مَجْتَمَعًا لَا تَحْدَهُ حُدُودٌ قَوْمِيَّةٌ .

وَكَانَتْ الْعَرَبِيَّةُ هِيَ اللُّغَةُ الَّتِي كَتَبَ بِهَا هَذَا الْإِنْتِجَاجُ أَوْ غَالِيَّتُهُ . وَالْإِسْلَامُ دَعْوَةٌ لِبِنَاءِ الْأَرْضِ وَعِمَارَتِهَا ، دَعْوَةٌ ضِدَّ الطَّاغُوتِ بِكُلِّ أَنْوَاعِهِ . وَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ بِالْقَوَاعِدِ الْإِنْسَانِيَّةِ

* مَلَخَصُ الْمَحَاضِرَةِ الَّتِي أَلْقَيْتُ فِي الْمَوْسَمِ الثَّقَافِيِّ الْأَوَّلِ بِجَامِعَةِ الرِّيَاضِ مَسَاءَ الثَّلَاثَةِ ١٩ شَعْبَانَ ١٣٨٧ هـ .

لتوجيه الإنسان في كل ميادين الحياة وخط الطريق لتحقيق إنسانيته ، وبهذا سار الراكب محافظاً على هذه المبادئ ، وكان يبتعد عن الخط السوي يوم تقتكب قدمه عن الخط المسلم .

وكان إندفاع المسلمين إلى العلوم والاهتمام بها مساوياً لنشاطهم في تحقيق الأهداف الأخرى للإسلام كالفتوحات مثلاً . وإن التراث الذي قدمته حضارة الإسلام كان زاخراً في كل ميادين المعرفة الإنسانية . وإن ما كُتِبَ باللغة العربية عن الفلسفة والطب والتاريخ والفلك وغيرها من العلوم والفنون فيما بين القرنين التاسع والثاني عشر للميلاد فاق كل ما كتب بأي لسان آخر .

ولم تكن الانتاجات الفكرية في حضارة الإسلام هي ثمرته الوحيدة لكنه أوجد عقائد ومفاهيم غيّرت تصوّر الإنسان للحياة والكون . ويُعتبر الإسلام ثورة حقيقية طلع نورها على هذه الأرض ، وهو الذي كرم الإنسان وحقق إنسانيته وأضاء له الحياة . فحضارة الاسلام - إذا - تشمل ايضاً كل المثل العملية التي عاشت في المجتمع المسلم في كل نواحي الحياة وعلى كل المستويات . وإن الحضارة الحالية وحضارة الغرب بصورة خاصة قد أخذت دون تحفظ كثيراً من أصولها من هذه الحضارة الإسلامية . ولكنها لأسباب لم تقتبس إلا بحدود نادرة من الجانب العملي الاجتماعي للإسلام .

والحقيقة إن أية حضارة تتخلى عن هذا الجانب الخلقي الاجتماعي ستظل حضارة عرجاء . وهذا الجانب هو ما تفتقر إلى كثير منه الحضارة الحالية .

والحديث في الحضارة الاسلامية لا بد أن يكون ايضاً حديثاً عنها باعتبارها ثمرة من ثمار العقيدة الاسلامية . وكان المسلمون الفاتحون يحملون معهم أينما ذهبوا مبادئهم الرفيعة وأخلاقهم العالية ومثلهم الإنسانية . كانوا كذلك يحملون معهم العلم والمدنية ويضعون بذور التقدم والحضارة ومن هنا لا بد لنا حين ندرس حضارة الإسلام أن نربط هذه الحضارة بالأساس الذي قامت عليه وهو العقيدة الاسلامية .

ولا بد لنا أن نفهم التاريخ الإسلامي كذلك على ضوء هذه النظرة . وليس التاريخ والحضارة إلا مظهران من مظاهر الاسلام كنظام عالمي متكامل . وإن العصور الزاهرة في تاريخ الإسلام تميزت بالانتاج الحضاري الرائع كانت هي في عين الوقت متميزة بالروح القوي الذي جعل التقدم المادي يواكب نداء المآذن زاحفاً في ركب متناسق . وإن العبقرية العلمية التي حقق بها المسلمون الأولون هذه العجائب والانجازات في شتى ميادين العلم والمعرفة كانت تصدر من أفق منير ملتزم بالآيمان بالله وبمثل الاسلام النيرة ولذلك فلا نعدو الصواب إذا ربطنا بين التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية وبين مقدار عمق هذه العقيدة

وسيطرة أنظمتها على المجتمع وبين ذلك كله وبين مجريات الأحداث والانتاج العلمي فيه .

وإهتمام الإسلام بالالتقان في بناء الحياة الجدية في الوصول إلى الأفضل لا يحتاج إلى بيان. والآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة متواترة كثيرة ، وإهتمام الإسلام بالعلم أمره معروف ما دام الإسلام يعتبر مداد العلماء كدماء الشهداء .

وبوحي من هذه الروح نجد أن أبا الريحان البيروني حينما حضرته الوفاة وجاءه أحد الزائرين دار الحديث حول بعض مسائل الميراث وطلب البيروني من زائره توضيحها له فقال له الزائر تسأل عن هذا وأنت في هذه الحال ؟ فقال له البيروني ويحك لأن أذهب إلى الله وأنا أعرفها خير من أن أذهب إليه وأنا أجهلها .

وعلى هذه الأسس والمقومات بُنِيَت حضارة الإسلام ، وكانت لهذه الحضارة مراكز إشعاع عديدة تعتبر الأندلس أكثرها إشراقاً .

وحضارة الإسلام في الأندلس هي موضوع هذا الحديث الذي سأتناول فيه بالبيان جانبين :

١ - وصف لهذه الحضارة الأندلسية الإسلامية .

٢ - أثر هذه الحضارة على أوروبا .

والأندلس (التي يسميها الباحثون الغربيون اسبانيا الاسلامية مقابل اسبانيا المسيحية) هي : تلك المناطق التي سيطر عليها المسلمون من شبه الجزيرة الإيبيرية Iberian Peninsula (اسبانيا والبرتغال اليوم) .

وكانت حالة إسبانيا قبل الفتح الإسلامي لا تختلف عن بقية أوروبا في الجهل والتأخر . ولما كان الفتح الإسلامي لاسبانيا أزال عنها هذه الأوضاع وحمل إليها الخير والحضارة .

وافتححت الأندلس على يد طارق بن زياد الذي أرسله موسى بن نصير والي الشمال الإفريقي وذلك في نهاية القرن الأول الهجري .

وبقي الإسلام في الأندلس ثمانية قرون ، وضع سقوط غرناطة Granada نهايتها في ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م .

لقد مرت الأندلس خلال هذه القرون الثمانية بفترات متنوعة متباينة قوة وضعفاً . فبعد الفتح الإسلامي لإسبانيا كانت فترة الولاة التي انتهت بقيام الإمارة في الأندلس على يد عبد الرحمن الداخل في سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٥ م . واستمرت هذه الفترة حتى قيام الخلافة الأندلسية التي أعلنها الخليفة عبد الرحمن الناصر في ٩٢٨/٣١٦ . وانتهت بقيام دويلات الطوائف بعد ضياع وحدة الأندلس وسقوط الخلافة فيه ثم كان حكم المرابطين والموحدين من

الشمال الإفريقي ثم قامت دولة غرناطة التي أسسها محمد بن الأحمر والتي استمرت حوالي قرنين ونصف .

ولا شك إن حضارة الأندلس كانت لها أصول من الشرق الإسلامي لكن هذه الحضارة نمت في الأندلس وتطورت في تلك الأرض الخصبة وإن حضارة الاسلام في الشرق أو في الغرب استفادت قبل ذلك من حضارات الأمم السابقة .

توفر في الأندلس الاستقرار السياسي وكان المجتمع الأندلسي يضم عناصر وأجناساً كثيرة مسلمة ومن أصحاب الديانات الأخرى مسيحيين ويهود عاشوا في مجتمع يسوده التسامح الكامل ، للكفاءة والمؤهلات الاعتبار الاول . ومن هنا كان المجال مفتوحاً لظهور العلماء والمفكرين من كل الأجناس ومن أتباع كافة الديانات . والتسامح الإسلامي الرائع في اسبانيا الاسلامية واضح ولا يحتاج إلى تأكيد وقد حدثنا عنه بثناء كثير من الباحثين الغربيين أنفسهم وعن طريقه أخذت أوروبا شيئاً من هذا التسامح ^(١) .

أسلمت الملايين من سكان الأندلس الأصليين عن طواعية وكانت لغير المسلمين الحرية الكاملة في كل أمورهم الدينية وفي عقد مؤتمراتهم كمؤتمري إشبيلية Seville في سنة ٧٨٢ م وقرطبة

(١) رينو ، تاريخ غزوات العرب ، ص ١٥٦ ، ٢٨٨ ؛ حقي ، تاريخ العرب ٦٠٧/٢ ؛ لوبون ، حضارة العرب ، ص ٢٧٦ - ٧ .

Cordoba سنة ٨٥٢ م^(١) . وكانت المصاهرات شائعة بين المسلمين وبين غيرهم سواء في الأندلس أو مع المسيحيين في خارجها ونعني على وجه الخصوص إسبانيا المسيحية في الشمال . وكما كان هذا شائعاً بين عامة الشعب كذلك كان مع حكام الأندلس .

وكان عبد الرحمن الناصر حفيداً لأميرة مسيحية من بلاد نافار Navarre في الشمال الإسباني وكم كان من أمناء سر (سكرتارية) أمراء الأندلس مسيحيين ، كما كان بعض سفرائهم من غير المسلمين .

وكانت في الأندلس طبقة من المسيحيين تُسمّيت بـ « المُستَعَرَبِينَ » ،^(٢) لأنها اتخذت - بإرادتها - العربية لغةً والتقاليد الإسلامية عادةً ، كالحُتان - مثلاً - الذي هو عادة إسلامية . وتحت ظلال هذا التسامح الإسلامي امتزجت كافة القابليات للمجتمع الأندلسي . وفي مثل هذا النضج والاستقرار السياسي أصبحت الأندلس أكبر قوة سياسية وحضارية في العالم ، تأتينا الوفود من كل مكان تطلب صداقتها وودها ، كما يروي ذلك ابن حَيَّان القُرْطُبِيُّ على ما يورده لنا المَقَرِّي في كتابه فتح الطيب^(٣) .

(١) لوبيون ، ص ٢٧٦ .

(٢) راجع عن هذا الاصطلاح : مؤنس ، فجر الأندلس ، ص

٤٢٥ - ٢٩ .

(٣) ٣٤٣/١ .

ولا تمكن المقارنة بين هذه السياسة المتساهلة وبين سياسة التعصب والاضطهاد التي صُبَّت على المسلمين في الأندلس قبيل وبعد سقوط غرناطة ، حيث نُزِجَتْ الآلاف المسلمة التي رُفِضَ حق تَنْصُرُها لعدم الثقة بنواياها (١) .

لقد بدأت بوادر الحضارة الإسلامية في الأندلس بالظهور منذ أيام عبد الرحمن الأوسط في النصف الأول من القرن التاسع الميلادي واستمرت في الإزدهار حتى بعد سقوط الخلافة بل وحتى نهاية الأندلس عند سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢ م . وكانت هذه الحضارة تشمل كل الجوانب وكافة النواحي ؛ ولم تكن تعتمد على النقل فقط ، كما يصور ذلك البعض جهلاً أو تجاهلاً ، بل اعتمدت على الابداع والابتكار فقدمت للانسان اروع المنجزات .

فهي حضارة تتصف بالعموم لا بالنسبة لشمولها لنواحي المعرفة الإنسانية بل ولشمولها لكافة العناصر والمستويات وللذكور والإناث . وبلغت في ذلك مرحلة عالية . فيروي لنا ياقوت الحموي في معجم البلدان حين الحديث عن مدينة شلب Silves الأندلسية (التي تقع الآن جنوب البرتغال) ، يقول ياقوت : « قل أن ترى من أهلها من لا يقول شعراً ولا يُعاني أدباً ، ولو

(١) عنان ، نهاية الأندلس ، ص ٣٧٩ - ٣٩٠ ؛ حقي ، تاريخ العرب ، ٦٥٩/٢ - ٦٠٠ .

مَرَرْتُ بِالْفَلَاحِ خَلْفَ فِدَانِهِ وَسَأَلْتُهُ عَنِ الشَّعْرِ قَرَضَ فِي سَاعَتِهِ
مَا اقْتَرَحْتُ عَلَيْهِ وَأَيُّ مَعْنَى طَلَبْتُ مِنْهُ « (١) .

كما يروي لنا عبد الواحد المراكشي في كتابه (المُنْجِبُ فِي
تَلْخِيسِ أَخْبَارِ الْمَغْرِبِ) بأنه « كَانَ بِالرُّبُضِ الشَّرْقِيِّ فِي
قَرْطُبَةِ ١٧٠ إمْرَأَةً كُلُّهُنَّ يَكْتُبْنَ الْمَصَاحِفَ بِالْخَطِ الْكُوفِيِّ » (٢) .

وَيُروى أَنَّهُ كَانَ فِي الْأَنْدَلُسِ أَيَّامَ الْحُكْمِ الْمُسْتَنْصِرِ (المتوفى
سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م) ، سَبْعُونَ مَكْتَبَةً عَامِرَةً عِدَا الْمَكْتَبَاتِ
الْخَاصَّةِ لِلْمَشَاهِيرِ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ ؛ بِالْإِضَافَةِ إِلَى مَكْتَبَةِ
قَرْطُبَةِ الرَّئِيسِيَّةِ الَّتِي يَقُولُ عَنْهَا ابْنُ حَزْمٍ بَأَنَ عِدَدَ مَجْلَدَاتِ
فَهَارِسِ هَذِهِ الْمَكْتَبَةِ تَعُدُّ ٤٤ مَجْلَدًا (٣) .

وَفِي الْوَقْتِ الَّذِي كَانَتْ الْأَنْدَلُسُ تَحْمِلُ إِمَامَةَ الْعِلْمِ وَالثَّقَافَةِ
كَانَتْ أُرُوبًا تَمُرُّ فِي الْعَصُورِ الْمَظْلَمَةِ الَّتِي تَسْمَى بِالْعَصُورِ الْوَسْطَى
(مِنْ الْقَرْنِ الْخَامِسِ إِلَى الْخَامِسِ عَشْرِ الْمِيلَادِيِّ) . وَيَصِفُ لَنَا
صَاعِدُ الْأَنْدَلُسِيِّ سَكَانَ الْأَقْطَارِ الْأُورُوبِيَّةِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ يَقُولُ
بَأَنَّهُمْ « أَشْبَهَ بِالْبَهَائِمِ وَأَنَّ مِنْ كَانَ مِنْهُمْ مُوْغَلًا فِي بِلَادِ الشِّمَالِ
عَظُمَتْ أَبْدَانُهُمْ وَابْيَضَّتْ أَلْوَانُهُمْ وَانْسَدَلَتْ شُعُورُهُمْ

(١) ٣٥٧/٣

(٢) ص ٣٧٢

(٣) جَهْرَةُ أَنْسَابِ الْعَرَبِ ، ص ١٠٠ ، حَتَّى ٦٢٦/٢ ، ٦٣١ - ٣ ؛
عَنَّان ، دَوْلَةُ الْإِسْلَامِ ، ٤٥٧٢ - ٤٦٠ .

فعُدِّموا بها دقة الأفهام وثقوب الخواطر وغلب عليهم الجهل
والبلادة وفشئ فيهم العمى والغباوة ، (١) .

وازدهرت الأندلس بمكتباتها وبالمؤلفات الكثيرة التي
احتوتها في مختلف العلوم والفنون . والذي وصلنا من تلك الثروة
قليل ، أكلته كثير من الحوادث على مر القرون . ويكفي أن
نذكر أنه بعد سقوط غرناطة وفي حوالي ١٥٠٥ / ١٥٠٠ م قام
خيمينس Ximénez De Cisneros مطران طليطلة Toledo
بالاحتفال بحرق المخطوطات العربية في أحد ميادين غرناطة .
ومن المحتمل أنه أحرق في هذا الاحتفال المنكود ما قد يقل أو
يصل إلى مئة ألف مخطوط عربي (٢) .

ولا تزال بقايا هذا التراث موزعة في مكتبات الشرق والغرب .
وهذه البقايا تمثل ثروة ضخمة هي بأشد الحاجة إلى العناية والبذل
لإنقاذها وبعثها إلى النور والحياة . ومكتبة قصر الإسكريال
El Escorial قرب مدريد أحد الأماكن التي تضم حوالي
ألفين من المخطوطات العربية التي تشمل كثيراً من مبادئ
المعرفة (٣) .

وانتقلت الحضارة الإسلامية إلى أوروبا خلال معابر عديدة
هي : الأندلس وصقلية والحروب الصليبية . ولعله من الصواب

(١) طبقات الأمم .

(٢) عنان ، نهاية الأندلس ، ص ٣٠٠ : ٢ حقي / ٦٥٨ - ٩٠ .

(٣) عنان ، الآثار الأندلسية ، ص ٤٣٤ .

أن نضيف إليها جنوب فرنسا وجنوب إيطاليا ومراكز الترجمة في إسبانيا وفرنسا وإيطاليا ، وكذلك التجار الذين كانوا يتنقلون بين البلدان المختلفة ووصلوا إلى عدد من الاقطار الأوروبية . وعلى كل حال فإن الاندلس من أهم معابر الحضارة الاسلامية إلى أوروبا .

وكانت في الاندلس مراكز مهمة للترجمة وكذلك في أوروبا وكانت متخصصة لهذا الهدف . وفي مدينة طليطلة تأسست في أواسط القرن الثاني عشر الميلادي مدرسة للترجمة بقيت ما يقرب من قرنين تقوم بهذا الدور وقد عمل فيها رجال من مختلف البلدان الأوروبية (١) .

وترجم كثير من الكتب في مختلف الميادين الى اللغة اللاتينية . ويكفي أن نذكر أن جيرارد الكريموني Gerard of Cremona الايطالي الجنسية ترجم وحده الى اللاتينية أكثر من سبعين كتاباً عربياً (٢) . وبذلك انتقلت هذه العلوم إلى عدد من البلدان الأوروبية وكانت جامعة مونتبلية Montpellier جنوب فرنسا في القرن الثالث عشر للميلاد من المراكز المهمة في الدراسات الطبية في فرنسا . وكان عدد من أساتذتها مسلمين (٣) .

(١) حتى ، ٦٩٨/٢ .

(٢) عاشور ، المدينة الإسلامية ، ص ٦٥ .

(٣) رينو ، تاريخ غزوات العرب ، ص ٢٩٦ .

والحضارة الاسلامية في الاندلس امتدت الى كافة الميادين
وظهر في كل منها عباقرة ومبدعون فشملت كل ألوان النشاط
الفكري ، وإليك هذا البيان الملخص :

الأدب

بلغت الاندلس مكانة عالية وأصبح الأدب عاملاً بين الرجال
والنساء . ولدينا أسماء لامعة كثيرة ، وللأسف ضاع إنتاج الكثير
منهم ومنهن ولقد نقلت بعض كتب الادب الى اللغات الاوربية
وتأثر بعض الكتّاب الأوربيين بالانتاج الادبي العربي مثل الكتّاب
الاسباني الكبير ثيرفنتس Cervantes ، ودانتي Dante الايطالي في
الكوميديا الإلهية The Divine Comedy حتى يقال أن
شكسبير Shakespeare الكاتب الانكليزي المعروف كان
متأثراً في بعض أو أحد رواياته بالادب العربي^(١) .

ولقد أضافت الأندلس إلى التراث الأدبي فناً أدبية جديدة
كالوشحات والأزجال اللذنين إستعملتا في الغناء .

الفلسفة

لمعت في هذا الميدان أسماء كثيرة أمثال ابن باجة الفيلسوف ،

(١) عاشور ، ص ٨١ ؛ حتى ، ٢/٦٦٣ ؛ باغات ، دور الساميين ،
ص ٧١ ؛ بالنشأ ، ص ٥٥١ .

وإبن رشد Averroes الذي يعتبر من أعظم فلاسفة الاندلس ، ترك أثراً واضحاً في الغرب ، وكذلك ابن طفيل صاحب قصة حي بن يقظان التي نقلت الى كثير من اللغات الأوروبية . ولقد ترجمت كتب ابن رشد الى اللاتينية وكانت آراؤه ذات تأثير بالغ على الفلسفة الأوروبية في القرون الوسطى .

الجغرافية والرحلات

والمسلمين فيها إنتاج كثير ، ولهم يعود الفضل في إرتياد كثير من الاماكن والبحار وكذلك سن وتشجيع كشف المجهول وهم الذين مهدوا الطريق الى الرحلات الإستكشافية فيما بعد . وهم أصحاب النظريات والأدوات البحرية . وقد ظهر في الاندلس عدد من الجغرافيين الذين لمعت أسماؤهم وكانت لهم الإنتاجات القيّمة كالرازي والبكري والعُدري والإدريسي وابن بطّوطة وآخرين .

وفكرة كروية الأرض قال بها المسلمون وبرهنوا عليها .

ولقد ازدهرت التجارة الإسلامية وأصبح للمسلمين مراكز تجارية في بلدان غالبية سكانها غير مسلمين . وكان المسلمون يتمتعون فيها بمكانة طيبة لما كانوا مصدر ثقة لأولئك السكان ، نظراً للمثل التي كانوا يتحرونها .

التاريخ

لقد غدا التاريخ علماً قائماً بذاته . ويعتبر إبن خلدون مؤسس

فلسفة التاريخ ، ولقد تُرجمت مقدمته إلى عدة لغات ، ومنها
إستمد بعض علماء الاجتماع عدداً من نظرياتهم الاجتماعية . ولقد
إحتل المؤرخون الأندلسيون مكانة عالية كإبن حَيَّان والرازي
وإبن الخطيب . وكان إبن حَيَّان معروفاً بطريقته النقدية
التحليلية ، وللأسف فقد ضاعت أكثر كتبه .

التعليم الجامعي

لقد نُقلت أوروبا أساليب التعليم وأنظمة الجامعات في عين
الوقت الذي كانت تنقل فيه العلوم الإسلامية . ولعل نظام
الشهادات الأوروبية متطور عن نظام الإجازة العلمية ^(١) ، وهو
نظام إسلامي . كما إن بعض أنظمة التدريس واختيار الاساتذة
وتقاليدها نُقلت إلى أوروبا عن طريق الاندلس أو غيرها من
معايير الحضارة الإسلامية .

وكانت الاندلس مشهورة بجامعاتها في قُرْطُبَة وَغَرْنَاطَة
وَإِشْبِيلِيَّة وغيرها ، وكان للأساتذة نظام يُختارون على أساسه .
وكان يَفِدُ إلى هذه الجامعات الألوف من طلبة أوروبا وغيرها .
وإن البابا سلفستر الثاني Sylvester II كان قد درس في الاندلس
على أيدي العلماء المسلمين ثلاث سنوات ، تلقى خلالها دراسات
في الرياضيات والفلك والكيمياء وغيرها ^(٢) .

(١) عاشور، المدنية الإسلامية ، ص ١٧٥ .

(٢) رينو ، تاريخ غزوات العرب ، ص ٢٩٦ ؛ والترجمة الإنجليزية

ص ٢٢٤ .

الفلك

جعل المسلمون الفلك علماً بعيداً عن الخرافات ، وألفوا فيه الكتب الكثيرة التي ترجمت إلى اللغات الأوروبية . وكان للمسلمين في الاندلس مراصد ، مثلاً في قرطبة وطلطيلة . ومن الفلكيين الأندلسيين أبو القاسم الجريطي الذي ترجم بعض كتبه إلى اللاتينية ^(١) . واخترع المسلمون في الاندلس نوعاً من الساعات (الميقاتة) .

الرياضيات

وبالنسبة لهذا العلم فقد تقدم في الاندلس ، وأضاف المسلمون إليه كثيراً من الأفكار والنظريات الجديدة . وقد تأثرت أوروبا به إلى حد كبير ، تدل على ذلك الاصطلاحات الرياضية التي لا تزال موجودة حتى اليوم . والأرقام الأوروبية عربية ، والصفر الذي حل مشاكل كثيرة في الرياضيات نقل إلى أوروبا عن الاندلس ^(٢) .

الفيزياء

لقد وضع المسلمون كثيراً من أسسه . وأن نظرية الجاذبية

(١) حتى ٦٧٨/٢ ؛ لوبون ، حضارة العرب ، ٤٦٢ .

(٢) عاشور ، ص ١٠٠ .

لها أصل إسلامي^(١)، كما أن العلماء المسلمين تحدثوا عن المغناطيسية والعدسات والبصريات . وأبدعوا في هذا المجال كثيراً .

الكيمياء

لقد نقلت أوروبا من المسلمين كثيراً من قواعدها وأصولها ، والأسماء العربية التي بقيت حتى اليوم في اللغات الأوروبية تشير إلى هذا التأثير^(٢) .

وتوصل المسلمون إلى عدد من الصناعات بواسطة المواد الكيماوية في الصباغة والدباغة وصناعة المعادن . وهم الذين استطاعوا لأول مرة جعل البارود مادة متفجرة دافعة قابلة لاطلاق القذائف^(٣) .

العمارة والهندسة

تعتبر المباني الاندلسية (التي لا يزال بعضها حتى اليوم ينطق بالمستوى الذي وصلت إليه) قمة في فن الهندسة المعمارية^(٤) . وللأسف فقد اندثرت بعض هذه المباني التي وصفها لنا الرحالة

(١) عاشور ، ص ١٢٩ .

(٢) عاشور ، ص ١٤٠ ، لو يون ، ص ٤٧٥ .

(٣) عاشور ، ص ١٤١ .

(٤) حتي ، ٧٠٥/٢ ؛ لو يون ، ص ٥٣٩ .

والجغرافيون بالآوصاف الرائعة وبالفنية العالية والدقة المتناهية،
كقصر الزهراء الذي أنشأه الخليفة عبد الرحمن الناصر. ولا تزال
بدائع هذا الفن في اسبانيا باقية حتى اليوم .

الصناعة

من أول ما يذكر ، في هذا الميدان ، صناعة الورق التي
ازدهرت في الاندلس التي تعتبر من أهم الخدمات التي أسداها
المسلمون للعالم كله (١) . كما ازدهرت صناعة الفخار والفسيفساء
الملونة ، وكذلك المنسوجات التي كانت الاندلس تحتل فيها
مرتبة عالية .

الطب

لقد ترك لنا المسلمون في الاندلس في هذا العلم ثروة كبيرة ،
وظهر أطباء ماهرون منهم - على سبيل المثال - أبو القاسم
الزهراوي المتوفى سنة ١٠١٣ م. وهو صاحب كتاب «التصريف
لمن عجز عن التأليف» (٢) . أورد فيه آراء جديدة تتعلق
بالتشريح وإجراء بعض العمليات في العيون والاسنان والولادة.

كذلك أسرة بني زهر التي تخصصت في علم الطب .

(١) قارن : حق ، ٢ / ٦٧٠ .

(٢) حق ، ٢ / ٦٨٥ .

ويوم انتشر مرض الطاعون في أوروبا في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي ووقف القوم هناك حياله مستسلمين باعتباره من قضاء الله فلا تجب مقاومته وضع الطبيب (والأديب المعروف) الفرناطي ابن الخطيب المتوفى سنة ٧٧٦ هـ / ١٣٧٥ م كتابه « مقنعة السائل عن المرض الهائل »^(١) يدافع فيه عن نظرية العدوى ويثبتها بالأدلة .

الصيدلة

أبدع المسلمون فيه كثيراً بما قدموه من الإنجازات في هذا الميدان . فركبوا الأدوية وألفوا فيها الكتب التي ترجمت إلى اللغات الأوروبية . وألف ابن البيطار بعض الكتب فيها وأورد أسماء عدد من المؤلفين في هذا العلم وقد ترجم هذا الكتاب وغيره إلى اللغات الأوروبية .

الزراعة والنبات

درست كثير من النباتات ووصفت . وكتاب الفلاحة ليحيى بن محمد بن العوام في هذا الموضوع مشهور جداً^(٢) . وقد نقل المسلمون إلى إسبانيا زراعة الزيتون والبرتقال والكروم والقطن

(١) حق ، ٢ / ٦٨٤ .

(٢) حق ، ٢ / ٦٨٣ .

وغيرها^(١). ولا تزال اسبانيا تشتهر بهذه المزروعات حتى اليوم بل وتنتج من بعضها أجود الأنواع .

البحث العلمي

كانت للمسلمين فيه الأساليب السليمة التي هي وليدة الفكر المسلم . وقد اتجه هذا الفكر إلى التعمق . كما انهم أعطوا أهمية للتخصص في فن واحد من العلوم . وإن البحث والتجربة نشأت في أحضان الاسلام الذي فتح الباب على مصراعيه لهذه الأمور . وإن روجر بيكون الانكليزي الذي يعتبر صاحب المذهب التجريبي نقل هذا المذهب إلى تلامذته من أساتذته المسلمين^(٢) كما أشار بنفسه إلى ذلك .

المعنويات

لقد تأثرت أوروبا إلى حد ما ببعض المعنويات الإسلامية . ولعل الذي أوقفها عن تقبل هذه المعنويات — قبُولها للعلوم — مأخوذاتها عن اليونان والرومان بالإضافة إلى ما لديها من التعصب الذي كان يغذيه بعض رجال الدين فيها . وعن المسلمين في الاندلس

(١) لوبون ، ص ٢٧٤ .

(٢) عاشور ، ص ٩٥ .

تعلم الاوربيون قواعد الفروسية وتقاليدها وخصالها (١) .
ونتيجة لهذه الافكار التي تسربت إلى أوروبا من الاندلس
الإسلامية ومن غيرها بدأت أوروبا تعمي تدريجياً وتصلح من أحوالها
وأدت هذه النهضة الفكرية إلى نشأة أفكار جديدة نمت هناك
شيئاً فشيئاً ومنها انطلقت أوروبا إلى عصر النهضة (٢) . ولعلنا
لا نبعد عن الصواب كثيراً إذا قلنا إن هذه العلوم الإسلامية
كانت المنطلق لأوروبا إلى التقدم العلمي وكذلك إلى عدد من
إصلاحاتها السياسية وإن كنا لا ننكر إمكانيات وأسباب
أخرى محلية .

ولا عيب على أوروبا أو غيرها في اقتباسها من الحضارة
الإسلامية فإن الحضارة الإسلامية نفسها قد استفادت مما لدى
الأمم الأخرى التي سبقتها ، لكن الاسلام زاد على ما اقتبسه
وأضاف الى الحضارة مبتكرات جبارة .

وعن طريق الاندلس وغيرها انتقلت هذه العلوم إلى
أوروبا . وكانت هذه المبتدعات شاملة لكل ميادين الفكر
والمعرفة الإنسانية .

وكم كنا نتمنى لو أن حضارة الاسلام استمرت دون إنتكاس
إذن لكان الانسان قد حقق اليوم ما سيحققه بعد عدة قرون .
فيوم كانت الاندلس تزخر بالعلم والمعرفة والمدارس والجامعات

(١) لوبون ، ص ٥٧٦ ، ٢٧٨ .

(٢) قارن : لوبون ، ص ٥٧٩ .

ويوم كانت قرطبة تمتد شوارعها أميالاً عديدة مُضاءة بالمصابيح العامة لم يكن في لندن مصباح عمومي واحد حتى بعد هذا التاريخ بسبعة قرون^(١)، ويوم كانت بعض السلطات الكَنَسِيَّة تعتبر الاستحمام عادة وثنية كانت قرطبة تتمتع بالحمامات الرائعة . ومن هذه الحضارة الإسلامية إرتوت أوروبا ونقلت الى لغاتها المؤلفات الإسلامية التي بقيت تُدرَّس في جامعاتها عدة قرون . ونحن الآن نعيش في حضارة مادية تفتقر الى كثير من المُثُل الإسلامية الإنسانية ، وإننا فقراء حتى من هذه الحضارة المادية . وإن بين أيدي المسلمين مُثُل الاسلام الرائعة التي أنشأت حضارتهم .

فهل لنا ان نتساءل

هل ان الاسلام لا يزال يملك القوة الدافعة المبدعة لحضارة رائعة وخلق مجتمع نظيف ؟

وهل الأمل في أن المسلمين سيعودون لحمل راية النور ؟

الجواب سيكون بالإيجاب إذا تدبرنا تعاليم الاسلام العظيمة واعتبرنا تاريخه وحضارته المشرقة التي كان لها السبق في كل ميدان .

والأمل في أن يعود المسلمون لحمل هذه الراية ، وذلك ما يجعلنا نأمل — بعون الله — أن المستقبل للإسلام وللمسلمين الخلافة في الارض .

(١) حتى ، ٦٢٦/٢ .

المصادر

أولاً - العربية :

- ١ - ابن الأثير ، الخُلَّة السَّيَّراء ، تحقيق حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، جزء آ ن .
- ٢ - ابن الأثير ، إعتاب الكُتَّاب ، تحقيق صالح الأشر ، دمشق ، ١٩٦١ .
- ٣ - ابن بَسَّام ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، القاهرة ، ١٩٣٩ ، الجزء الأول .
- ٤ - ابن حزم الأندلسي ، جمهرة أنساب العرب ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، القاهرة ، ١٩٦٢ .
- ٥ - ابن حزم الأندلسي ، طوق الحمامة في الألفة والألاف ،

تحقيق حسن كامل الصيرفي ، القاهرة ، ١٩٥٩ .

٦ - ابن حوقل ، صورة الأرض ، تحقيق كريم J. H. Kramers ، لندن ، ١٩٣٨ ، الجزء الأول .

٧ - ابن حيان القرطبي ، المُقْتَبَس في أخبار بلد الأندلس ، الجزء الثالث ، باريس ، ١٩٣٧ ، تحقيق ملشور أنطونية Melchor M. Antuna ؛ والقسم المطبوع في بيروت (١٩٦٥) ، تحقيق عبد الرحمن علي الحجري .

٨ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام (القسم الأندلسي) ، تحقيق ليفي بروفنسال ، بيروت ، ١٩٥٦ .

٩ - ابن خلدون ، العِبَر ، بيروت ، ١٩٥٨ ، الجزء الرابع .

١٠ - ابن دحية الكلبي ، المُطَرَّب من أشعار أهل المَغْرِب ، تحقيق ابراهيم الأبياري وحامد عبد المجيد وأحمد أحمد بدوي ، القاهرة ، ١٩٥٤ .

١١ - ابن سعيد المغربي ، المَغْرِب في حُلَى المَغْرِب ، تحقيق شوقي ضيف ، القاهرة ، ١٩٥٣ ، الجزء الأول .

١٢ - ابن عذاري ، البيان المَغْرِب في أخبار الأندلس والمَغْرِب ، الجزء الأول والثاني ، لندن ، ١٩٤٨ - ١٩٥١ ، تحقيق كولان وليفى بروفنسال ؛ الجزء الثالث ، باريس ،

١٩٣٠ ، تحقيق ليفي بروفنسال .

١٣ - ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، تحقيق أحمد زكي باشا ، القاهرة ، ١٩٢٤ .

١٤ - ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، طبعة عبد الله أنيس الطباع ، بيروت ، ١٩٥٧ .

١٥ - أبو زهرة (محمد) ، ابن حزم ، القاهرة ، ١٩٥٤ .

١٦ - أرسلان (شكيب) ، الحلل السُّنْدَسِيَّة في الأخبار والآثار الأندلسية ، فاس ، ١٩٣٦ ، الجزء الأول .

١٧ - الأفغاني (سعيد) ، ابن حزم الأندلسي ، دمشق ، ١٩٤٠ .

١٨ - بالنشيا (آنخسل جنثالث) ، تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٥٥ .

١٩ - بامات (حيدر) ، دَوْر المسلمين في بناء المدنية الغربية ، جنيف لا سنة للطبع .

٢٠ - البكري (أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز) ، جغرافية الأندلس وأوروبا ، من كتابه « المسالك والممالك » ، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي ، بيروت ، ١٩٦٨ .

٢١ - الحاجري (طه) ، ابن حزم صورة أندلسية ،
القاهرة ، لا سنة للطبع .

٢٢ - حقي (فيليب) ، تاريخ العرب (مطول) ،
بالاشتراك مع أدورد جرجي وجبرائيل جبور ، بيروت ،
١٩٦٦ ، الجزء الثاني .

٢٣ - الحُمَيْدي (أبو عبدالله محمد) ، جنوة المُقْتَبَسِ ،
تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ، القاهرة ، ١٩٥٢ .

٢٤ - خليفة (عبد الكريم) ، ابن حزم الأندلسي (حياته
وأدبه) ، بيروت ، ١٩٦٨ .

٢٥ - دائرة المعارف الاسلامية (الترجمة العربية) ، الجزء
الأول ، القاهرة ، ١٩٣٣ .

٢٦ - رينو (جوزيف) ، تاريخ غزوات العرب ، ترجمة
شكيب أرسلان ، بيروت ، ١٩٦٦ . والكتاب أصلاً بالفرنسية
وهو مترجم إلى الانجليزية (انظر ص ٤٧ من هذا الكتاب) .

٢٧ - الزرّكلي (خير الدين) ، الأعلام ، القاهرة ، ١٩٥٩ ،
الجزء الأول والخامس .

٢٨ - سالم (السيد عبد العزيز) ، تاريخ المسلمين وآثارهم
في الأندلس ، بيروت ، ١٩٦٢ .

٢٩ - الشريف الإدريسي ، 'نزّهة المشتاق في اختراق الآفاق'
(قسم منه) روما ، ١٥٩٢ .

٣٠ - شيت خطاب (محمود) ، 'قادة فتح المغرب العربي' ،
بيروت ، ١٩٦٦ ، الجزء الأول .

٣١ - صاعد الأندلسي ، 'طبقات الأمم' ، تحقيق الأب لويس
شيخو اليسوعي ، بيروت ، ١٩١٢ .

٣٢ - عاشور (سعيد عبد الفتاح) ، 'المدنية الإسلامية
وأثرها على أوروبا' ، القاهرة ، ١٩٥٠ .

٣٣ - العبدّادي (عبد الحميد) ، 'صور وبحوث من التاريخ
الإسلامي' ، القاهرة ، ١٩٥٣ .

٣٤ - عباس (إحسان) 'تاريخ الأدب الأندلسي (عصر
سيادة قرطبة)' ، بيروت ، ١٩٦٠ .

٣٥ عبد البديع (لطفي) ، 'الإسلام في إسبانيا' ، القاهرة ،
١٩٥٨ .

٣٦ - العذري (أحمد بن عمر بن أنس) ، 'نصوص عن
الأندلس' ، تحقيق عبد العزيز الأهواني ، مدريد ، ١٩٦٥ .

٣٧ - عنان (محمد عبدالله) ، 'تراجم إسلامية شرقية
وأندلسية' ، القاهرة ، ١٩٤٧ .

٣٨ - عنان، دولة الاسلام في الأندلس ، القاهرة ، ١٩٦٠ ،
جزء آن .

٣٩ - عنان، الآثار الأندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال،
القاهرة ، ١٩٥٨ .

٤٠ - عنان ، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين ،
القاهرة ، ١٩٥٨ .

٤١ - فرُّوخ (عمر) ، العرب والاسلام في الحوض الغربي
من البحر المتوسط ، بيروت ١٩٥٩ .

٤٢ - الكتّاني (ابراهيم محمد) ، هل أثّر ابن حزم في
الفكر المسيحي ، منشور في مجلة (البيّنة) التي تصدر في
الرباط (المغرب) ، ١٩٦٢ ، العدد الثاني .

٤٣ - لوبون (غوستاف) ، حضارة العرب ، ترجمة عادل
زعتر ، القاهرة ١٩٥٦ .

٤٤ - لين بول (استانلي) ، العرب في اسبانيا ، ترجمة
علي الجارم ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

٤٥ - محمود (حسن أحمد) ، قيام دولة المرابطين ،
القاهرة ، ١٩٥٧ .

٤٦ - المراكشي (عبد الواحد) ، المُنْجِب في تلخيص
أخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان ، القاهرة ١٩٦٣ .

٤٧ - المَقْرِي ، نفع الطيب ، طبعة محمد محي الدين عبد
الحمد ، القاهرة ، ١٩٤٩ ، الأجزاء : الأول والثاني والثالث
والرابع .

٤٨ - مؤنس (حسين) فجر الأندلس ، القاهرة ، ١٩٥٩ .

٤٩ - النُبَاهِي (أبو الحسن عبد الله) ، تاريخ قضاة
الأندلس ، نشر ليفي برفنسال ، القاهرة ، ١٩٤٨ .

٥٠ - هونكه (زيفريد) ، شمس العرب تسطع على
الغرب ، ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي ، بيروت ، ١٩٦٤ .

٥١ - ياقوت الحموي ، معجم البلدان (طبعة : دار بيروت -
دار صادر) ، بيروت ، ١٩٥٧ ، الجزء الثالث .

ثانياً - المصادر الأجنبية :

I - De Urbel (F. J. P) *Historia de Espana* , vol. VI,
Espana Cristiana (ed. R.M. Pidal), Madrid, 1956 .

2 - Dozy (R.) , *Spanish Islam* ' Eng. tr. F. G. Stokes,
London, 1913 .

3 - Imamuddin (S. M.), *A Political History of Muslim
Spain* Pakistan (Dacca), 1961 .

- 4 - Lévi - Provençal (E.), *La Civilisation Arabe en Espagne* , Paris , 1961 .
- 5 - Lévi - Provençal, *Histoire de l'Espagne Musulmane*, Paris, 1950 , vols. I-II .
- 6 - Liudprand, *The Works of Liudprand of Cremona*, Eng. tr. F. A. wright, London, 1930 ,
- 7 - Oliver Y Hurtado (Manuel), *Discursos* , no. 2, Real Academia de la Historia, Madrid, 1866 , vol. III.



للمؤلف

١ - تحقيق ودراسة لكتاب « الْمُقْتَبِسُ فِي أَخْبَارِ بِلَدِ الْأَنْدَلُسِ ». للمؤرخ الكبير إِبْنِ حَيَّانَ الْقُرْطُبِيِّ ، المتوفى سنة ١٠٧٦/هـ ١١٦٩ م . طُبِعَ ضمن سلسلة « المكتبة الأندلسية » ، ١٩٦٥ ، رقم ٤ ، تصدرها « دار الثقافة » في بيروت .

يتحدث هذا الجزء من « الْمُقْتَبِسِ » عن خمس سنوات (٣٦٠-٣٦٤/هـ ٩٧٠-٩٧٤ م) من أيام الحكم الثاني ، المستنصر بالله (٣٥٠-٣٦٦/هـ ٩٦١-٩٧٦ م) .

CRITICAL EDITION OF «AL-MUQTABIS FI AKHBAR BALAD AL-ANDALUS »
BY IBN HAYYAN (d . 469 / 1076) , Beirut , 1965. This volume , of « **AL-MUQTABIS** », discusses almost five years (360 - 4/970-4) of the Reign of AL-HAKAM II (350-66/961-76) .

٢ - تحقيق ودراسة للنص الجغرافي المتعلق بالأندلس وأوروبا من كتاب « المسالك والممالك » تأليف الجغرافي الأندلسي الكبير « أبو عبيد البكري » (عبد الله بن عبد العزيز) ، المتوفى سنة ١٠٩٤/هـ ١١٨٧ م .

ظهر هذا النص تحت عنوان « جغرافية الأندلس وأوروبا »
في بيروت، ١٣٨٧/١٩٦٨ . قامت بنشره دار الإرشاد للطباعة
والنشر والتوزيع « ، ص . ب : ٦٣٤٧ ، بيروت .

Critical edition of « **THE GEOGRAPHY
OF AL-ANDALUS AND EUROPE** » ,
from the Book **AL - MASALIK WAL -
MAMALIK**» By Abû'Ubayd AL-Bakrî (d.487/
1094) . Published Beirut , Dar Al-Irshad (P. o.
Box 6347 , Beirut) .

٣ - « أندلسيات » ، بيروت (دار الإرشاد) ١٩٦٨ .
وهو مجموعة بحوث ومقالات معظمها في التاريخ الأندلسي .

٤ - بحث عن « العلاقات السياسية بين ثوار الأندلس
واسبانيا المسيحية في الفترة الأموية » في مجلة « الأبحاث » تصدرها
الجامعة الأميركية في بيروت ، السنة ١٨ - الجزء ١ ، آذار
(مارس) ١٩٦٥ . نشر - مع تغيير - باللغة الإنجليزية :

« Political Reactions between the Andalusian
rebels and Christian Spain during the Umayyad
period » , **The Islamic Quarterly** | Published
by « The Islamic Cultural Centre » , Regent's

Lodge , 146 Park Road , London N. W. 8,
England.] Volume X, Number 3 & 4, 1386/1966.

٥ - بحث بالانجليزية عن :

« Intermarriage Between Andalusia and
Northern Spain in the Umayyad Period », **The Islamic Quarterly**, Vol. XI, Nos. 1 & 2,
1387/1967 . ونشر بالعربية في كتاب « أندلسيات »

٦ - نقد ، باللغة الانجليزية ، لكتاب :

W. Montgomery Watt: **A History of Islamic Spain** (Islamic Surveys 4) , E. U. P. , 1965 .
In « **The Islamic Quarterly** », Vol. X , Nos.
3 & 4 , 1966 . « أندلسيات » ونشر بالعربية في كتاب

٧ - بحث بالانجليزية :

« Two Unknown Embassies from Frankish
Monarch to the Court of Cordoba during the
reign of Al - Hakam II » , **The Islamic
Quarterley**, Vol. X, Nos. 1 & 2, 1386/1966 .

ثم نشر بالعربية في « مجلة كلية الآداب » (جامعة بغداد) ،
المجلد العاشر ، ١٩٦٧ تحت عنوان : « سفارتان مجهولتان من
ملك الإفرنج إلى بلاط قرطبة أيام الحكم الثاني » .

٨ - بحث بالانجليزية :

« Christian States in Northern Spain During the Umayyad Period » , **The Islamic Quarterley**, Vol. IX, Nos. 1 & 2 , 1385 / 1965 .

٩ - بحث باللغة الانجليزية عن الرحالة الأندلسي (إبراهيم بن يعقوب الإسرائيلي الطُرْطُوشي) .

« Ibrâhîm Ibn Ya'qûb At-Turtûshî , Andalusian traveller » , **Islamic Culture** [Published by the Islamic Culture Board, Hyderabad - Deccan , India .] Vol. XL, No 1 Jan. 1966 .

١٠ - بحث بالانجليزية يتناول جانباً آخر من شخصية الرحالة الأندلسي إبراهيم بن يعقوب الإسرائيلي الطُرْطُوشي

« At-turtûshî, The Andalusian , traveller, and his meeting with Pope John XII » **The Islamic Quarterly**, Vol. XI , Nos. 3 & 4, 1967 .

١١ - الموسيقى الأندلسية (يُعَد) .

١٢ - الحضارة الاسلامية في الأندلس (يُعَد) .

١٣ - **Diplomatic Relations of Umayyad Spain with Western Europe** (In The Press).

١٤ - بحوث أخرى قادمة بالعربية والانجليزية والاطالية

١٥ - مقالات متنوعة في عدد من الصحف العربية .

طبع علم مطابع
دار لبنان
للطباعة والنشر

هاتف ٢٥٧٤١١ - ٢٩٤٢٠٤ - ٢٩٣٠٤٣
بيروت - لبنان - ص.ب. ٥٦٢٠

STUDIES ON ANDALUSIAN HISTORY

by

Abdurrahman Ali El-Hajji

(B.A. , CAIRO UNIV. ; PH. D. CANTAB.)

Dar Al - Irshad

P. O. BOX 6347 BEIRUT

1388 / 1969